الجامعــة الأردنيــة

كلية الدراسات العليا

موقف سيد قطب من العقل والفلسفة

محمد ابراهيم فليح العساف

اشراف

الاستاذ الدكتور سلمان البدور

عميد كلية الدراسات العليا

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في الفلسفة بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية

آب/ ١٩٩٥

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ٦/٨/١٩٩٥

من قبل أعضاء اللجنة

الاعضــــاء		التوقيع
الاستاذ الدكتور سلمان البدور	مشرفاً	....
الاستاذ الدكتور أحمد ماضي	عضواً	....
الدكتور سليمان مخادمة	عضواً	....

الإهداء

الى روح ابي الطاهرة

والى والدتي امد الله في عمرها

والى اخوتي واخواتي وزوجتي

وطفلتي الغالية

شكر وتقدير

إلى الاستاذ الدكتور سليمان البدور ...... معالي الدكتور جواد العناني

الاستاذ الدكتور أحمد ماضي ...... معالي السيد ابراهيم عز الدين

الدكتور سليمان مخادمة ...... معالي السيد سعد الدين جمعة

الفهرس

ملخص

موقف سيد قطب من العقل والفلسفة

محمد ابراهيم فليح العساف

اشراف

الاستاذ الدكتور سلمان البدور

اعتبر سيد قطب المعرفة أمراً ممكناً للانسان على أساس الرؤية الدينية المستمدة من النص والتي تقول إن آدم أول موجود مده الله بالمعرفة الاساسية.أما وسائل تحصيلها فقد تعددت عنده، فهي الحس والعقل والوحي. والمعرفةالحسية هي معرفة العالم خارجه وتتم من خلال الملاحظة والتجربة المتكررتين. ويلتمس سيد قطب شرعية هذه المعرفة في الدين، على اساس أن الاسلام يطلق الاجتهاد في ما تخضع معرفته للحواس والتجربة ، ولكنها تبقى بحاجة إلى قدر من الثبات ، وهو ما يقوم به العقل، الذي يستمد تصوراته عما حوله من أشياء بواسطة إحصاء الشواهد واستنباط النتائج بناء على قوانينه، وبخاصة أصل العلية. لكن سيد قطب انكر وجود علاقة ضرورية بين العلة والمعلول، ونسب علاقة التوالي والتتابع في الاحداث إلى إرادة الله سبحانه، وجعلها وراء ما نسميه سلسله العلل.

وقد حدد سيد قطب للحقيقة مستويات هي: الحقيقة المادية، وتحصل بالبحث أو كما عبر عن ذلك سيد قطب بواسطة تجارب المعمل . والحقيقة الرياضية، وهي تلك التي تقوم على الفرضيات . وأخيراً الحقيقة الإلهية، التي تعتمد الذوق وسيلة لها، ويتلقاها الانسان من مصدرها الميتافيزيقي، وهي عنده ثابتة باعتبارها قاعدة الدين . أما معيار الحقيقة فقد وضعه سيد

قطب في عبارة مقتضبة بقوله: (أقرب الطرق إلى الضمير هو البداهة وأقرب الطرق إلى الوجدان هو الحس).

وأدت به نظرته إلى المعرفة الحاصلة عن الوحي - النص إلى انتقاد العقل، فرأى أن أحكامه غير قابلة للتعميم على مايقع خارج حدود الحس، وهذا بدوره محدود في أطار المكان والزمان. ولما كان الله خالقاً لها جميعاً فهو خارجها، ولذلك لايستطيع الحس أو العقل ادراك الله أو حتى تمثل صفاته . ولذلك بقي العقل عنده قاصرا عن أن يأتي بجديد، لأن مايفعله هو الكشف عن ما هو موجود . ولما كان ذلك حاله وجب عليه أن يقبل مايأتي به الوحي.

ويخلص سيد قطب إلى الاستنتاج أن باستطاعة العقل تدبير أمور الحياة اليومية طالما بقي في اطار ماهو محسوس ، اما الجانب الشمولي المتمثل عنده في وضع نظام لحياة الانسان فغير ممكن للعقل التعامل معه لمحدودية وسائله.

ولم يلغ سيد قطب دور العقل بل حدده في قدرته على ادراك خصائص التصور الاسلامي ومقوماته كما جاءت في النص . ولذلك جعل سيد قطب الاولوية للنص على العقل.

وفيما يتعلق بنقد سيد قطب للفلسفة بعامة، فقد جاء مبنياً على نظرته للعقل ودوره في تحصيل المعرفة، أما قوانين العقل وإعمالها على الكون فما هي عنده إلا محاولة من الانسان لفهم احداث الكون حسب قوانين عقله هو. ولما كانت الفلسفة ، من حيث هي نظرة شمولية ، قائمة على المعرفة التي تسعى وراء معرفة علل حدوث الاشياء؛ كانت اي محاولة لتفسير ما يجرى في الكون استنادا الى قوانين العقل تبقى محاولة بائسة وقاصرة عنده.

كما اعتبر الفلسفة الاسلامية امتداداً للفلسفة الاغريقية، واقترح تخليص التصور الاسلامي جملة من كل ما اطلق علية الفلسفة الاسلامية، ومباحث علم الكلام.

وقد نظر سيد قطب إلى الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة من خلال اتجاهاتها الثلاثة : المثالية التي تحيل ما في الكون الى الذهن أو العقل وتصوراته ، وبذلك يصبح نظام العالم نابعا من صورة المعرفة الانسانية له. والواقعية التي ترى أن العالم الخارجي موجود وجوداً مستقلاً عن الذهن . أو أن ماهو موجود وجوداً حقيقياً هو المادة وتجلياتها . والذهن نفسه ليس الاحد تجليات المادة لذلك تبقى المعرفة الانسانية محدودة في ما هو مادي. والحياتية التي تعتبر الحياة هي القدرة المبدعة التي تستخدم المادة والعقل من أجل تطوير نفسها.

إن موقف سيد قطب من الفلسفة الغربية يبقى دون مستوى فهم شامل وعميق لتلك الفلسفة واتجاهاتها. ومما يجدر ذكره أن نقده للفلسفة الغربية ولدور العقل في المعرفة كان مبنياً على قناعات مسبقة، بعضها ثقافي، مثل الاعتقاد بأن الفلسفة الغربية ترسخ الفصل بين الدين والدولة، وبعضها الأخر ديني، كالاعتقاد بأن الفلسفة امتداد للفكر الوثني، أو أنها ليست سوى انتزاعات عقلانية خالصة، وبالتالي لا تتفق مع وجهة النظر الاسلامية. وبناء على ذلك يمكن الاستنتاج بأن نقد سيد قطب للعقل والفلسفة كان تحكمياً وأن اطلاعه على الفلسفة الغربية كان سطحيا لم يمكنه من تقديم نقد دقيق ومتوازن لها.

لقد اعتقد سيد قطب بوجود حقيقة مطلقة، ولكن في اطار ميتافيزيقي ديني. حيث رأى أن الانسان لايمكن أن يكون مصدر الحقيقة، وبهذا يبقي مرجعية الحقيقة للوحي - النص وليس للانسان.

وقد قام سيد قطب بنقد الاتجاهات الفلسفية المختلفة ،و عرج على الفلسفة اليونانية واعتبرها وثنية تفسر العلاقة بين الله والكون على نحو لايمكن قبوله من وجهة نظر اسلامية.

مقدمـــة

حظي سيد قطب بكثير من الدراسات، ولكنها تناولت في معظمها الجانب الايديولوجي، في فكره وقد خصصت هذه الدراسة للجانب الابستمولوجي في فكره، أي ما يتعلق بموقفه من العقل والفلسفة. ومع أن هذا الموقف لم يخل من الطابع الايديولوجي الذي يمثل موقف سيد قطب الرافض من العلمانية، ودعوته الصريحة لتحقيق مشروعه السوسيوثيولوجي السياسي القائم على مبدأ "الحاكمية لله" (انظر بحث الاستاذ أحمد ماضي المنشور في العدد الثالث من المجلة الفلسفية العربية)، إلا أني ركزت اهتمامي على الناحية الابستمولوجية. وقد اعتمدت أساساً على ما كتبه سيد قطب، فقرأت كل كتبه، ثم قرأت جل ما كتب عن فكره.

ولقد وجدت أن سيد قطب يطل على العقل والفلسفة من زاوية خاصة تقوم على موقف مسبق منهما فصاغ رؤية رأيت أن أجعلها موضوع هذه الدراسة.

لقد اعتمدت المنهج التحليلي لأكشف عن المفاهيم الأساسية التي بنى عليها سيد قطب وجهة نظره في المعرفة بعامة وفي العقل والفلسفة بخاصة. وتبين أن رؤيته للعقل ونظرته للفلسفة مترابطتان، فكان موقفه من العقل هو الذي حدد كيفية نقده للفلسفة.

وتأتي هذه الدراسة في ثلاثة فصول: عالجت في الفصل الأول نظرية المعرفة عند سيد قطب لبيان مكانة العقل بين مصادر المعرفة ودوره في امكانية تحصيل المعرفة. حيث اعتبر سيد قطب أن تحصيل المعرفة أمر ممكن للانسان، ومن مصادرها عنده الوحي والحس والعقل. ولقد بينت وجهة نظر سيد قطب في شرعية وصدق المعرفة الحاصلة عن كل منها وما امتازت عنده به المعرفة النبوية الحاصلة عن طريق الوحي على بقية المعرفة الحاصلة للانسان من توازن وشمولية وواقعية وعالمية وثبات وخصوصية. أما العقل فقد رأى سيد قطب أن حدوده حدود الحس. وما تجود به الخبرة الحسية من صور. أما المعرفة الحاصلة عن طريق الحس فتأتي عن طريق الملاحظة والتجربة المحدودتين بحدود الزمان

والمكان، وهما مفهومان أساسيان في نظرية المعرفة عند سيد قطب، أخذ بهما عن كانط ولكن على نحو يقطعهما عن سياقهما الفلسفي عنده.

وأوضحت أن سيد قطب يقيس شرعية أي معرفة بمدى تلاؤمها مع الوحي – النص. وقدمت مفهوم سيد قطب للحقيقة ومستوياتها الثلاثة، المادية والحسية والإلهية.

وفي الفصل الثاني عرضت نقد سيد قطب للعقل والمحددات التي شكلت أساس موقفه من العقل. ثم بينت ما يساعد العقل على تحصيل المعرفة، وطبيعة الاحكام التي يطلقها العقل، ومجال اطلاق تلك الاحكام.

ثم أوضحت وجهة نظر سيد قطب حول ومدى قدرة العقل على مد قوانينه ومقولاته لاطلاقها في مجال حياة الانسان ونظام حياته (التشريع). ثم أردفت ذلك كله ببحث أهم الجوانب التي بنى عليها سيد قطب موقفه تجاه العلاقة بين العقل والوحي-النص، ومن حيث الأولية والتبعية.

وفي الفصل الثالث بينت أن موقف سيد قطب من العقل هو الذي حدد مسبقاً نظرته للفلسفة وبالتالي نقده لها. ولقد كشفت عن الأسس التي بنى عليها سيد قطب نقده للفلسفة بعامة ثم للفلسفة الاغريقية والاسلامية، وبخاصة فيما يتعلق بتفسيرها العلاقة بين الله والكون وطبيعة العلاقة بينهما.

وفي توضيح نقده للفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة وجدت أن سيد قطب، وربما في محاولة لاختصار نقده لها، جعلها تدور في ثلاثة محاور: المثالية والواقعية والحياتية.

فالمثالية التي ترى أن الموجود هو المدرك. حيث اختارت العقل وأعطته صفات الله. والواقعية التي ترى أن العالم الخارجي موجود وجوداً مستقلاً عن الذهن، فالطبيعة عند سيد قطب ليست لها حقيقة مستقلة عن تصور العقل. والحياتية التي تعتبر الحياة هي القدرة المبدعة وعلى العكس يرد سيد قطب صفات المادة ومراتب الحياة إلى تقدير الله وفاعليته.

الفصل الأول

نظرية المعرفة عند سيد قطب

تمهـيد:

يعتبر سيد قطب المعرفة أمراً ممكناً للإنسان على أساس أن آدم أول موجود مده الله بالمعرفة الأساسية من مصدرها كما ورد في القرآن الكريم ﴿وعلم آدم الأسماء كلها.....﴾.(البقرة: ٣١) وهو نص يفسره سيد قطب بأنه (القدرة على الرمز باللفظ والإسم للمدلول والمسمى، وهو القاعدة التي يقوم عليها امكان تبادل المعرفة وتعميمها في الجنس كله...). (١/م٣/جـ٨، ٤٨٨)

وتعتبر الحواس وسيلة تعرف الإنسان إلى العالم خارجه. وبها تحصل معرفته بخصائص الأشياء وصفاتها، ولكل حاسة موضوعها الخاص بها. فبحاستي الرؤية واللمس مثلاً يتم التعرف إلى ما اتخذ شكلاً ظاهراً. (١/م١/جـ١، ١٧٦)٭

وأساس المعرفة الحسية مادة وصورة، (٢، ٢٥١) ودور الحواس محدود في أنها تؤكد وجود الأشياء ولا تعطيها وجودها. (١/م١/جـ٢، ١٤)

أما المعرفة الحاصلة فتتم من خلال الملاحظة والتجربة المتكررتين. ولما كانت الملاحظة والتجربة جزئيتين دائماً فإن النتائج والمعرفة الحاصلة عنهما تكون جزئية وغير نهائية وغير مطلقة. ويؤكد ذلك أن التجربة والملاحظة تحصلان في الزمان والمكان المعطيين للإنسان، فالمعرفة الحاصلة للإنسان بالوسائل الحسية تنحصر في هذه الدائرة الجزئية، ولذلك كانت نسبية. (١/م١/جـ٣، ٤٠٥، ٤٠٦)

أما المعرفة الكلية التي تستلزم رؤية الموضوع الواحد من كل زواياه، وتقصي اسبابه وعلله ومراحله الممتدة في الزمان والمكان الواقعين وراء كينونة الإنسان، ومجال إدراكه فحصولها بالحواس غير ممكن. ولذلك يستنتج سيد قطب أن تعميم التجربة على جميع الأشياء المتشابهة في كل الأزمنة أمر غير ممكن. (١/م٣/جـ٧، ٢٥٦)

ويلتمس سيد قطب شرعية هذه المعرفة في الدين؛ لأنه يرى أن الإسلام يطلق الإجتهاد في ما تخضع معرفته للحواس والتجربة. وللإنسان تحصيل معارفه الخاصة بأمور دنياه بهذه الوسائل الحسية. (٣، ٣٠٥)

وبالنظر في طبيعة الإنسان المحدودة بوصفه حادثاً متحيزاً في حدود الزمان والمكان، فإن ما يحصل له من معرفة عن طريق حواسه بالعالم المادي لا بد أن يكون محدوداً بالزمان والمكان، وهما يحولان بين الإنسان وبين معرفة الكلي. إذ ليس باستطاعة الإنسان رؤية الماضي البعيد ولا المستقبل القريب، وبناء على ذلك لا يستطيع أن يدرك إلا ما هو متأطر بحدي الزمان والمكان المعطيين، فإدراك الأشياء لا يتم (بغير حدود تميزها، حدود من الزمان وحدود من المكان). (١/م٢/جـ٢٧، ٢٣٧)*

فبواسطة حدي الزمان والمكان يستطيع الإنسان أن يدرك أن المدرك كذا وكذا على يمين أو يسار المدرك كذا، لتصبح الأشياء من بعد صوراً ذهنية متصلة وبهذا يشكل الزمان والمكان صور المحسوس، لأن الحقيقة الخارجية غير المحسوسة يستحيل وجودها في مكان وزمان. (٤، ٨٦) وعليه فالمعرفة الحسية معرفة ظواهر، وهي لذلك متغيرة وتحتاج لقدر من الثبات ولا يكون ذلك الثبات إلا من خلال العقل. (٥، ٥٤٣) فهي لا تشكل مقياساً دقيقاً للحقائق التي تحصلها؛ لأنها ربما تخدع وتضلل من يثق بها، وهي قابلة للخطأ والصواب. (١/م١/جـ٣، ٤٣٨،٤٣٩)

ويرى سيد قطب أن الحواس حتى تكتسب الدرجة المتوخاة من اليقين لا بد من أن تطابق الحقائق العامة المعروضة في الدين، وأن تنسجم معها لأنه معيار صحتها. (٦، ١٣٨)

وإذا ما حاولنا أن ننفي الخطأ عن الحواس، وأن نقول بأن الخطأ إنما يحصل في الحكم، فإن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً لسببين: أولهما: أن عملية استحضار

* ويبدو هنا أن سيد قطب قد اطلع على وجهة نظر كانط التي اعتبر فيها الزمان والمكان صورتين قبليتين لأي تجربة حسية.

تجارب الإنسان كافة أمر غير ممكن، وثانيهما: أن عمر الإنسان الفردي، وعمره البشري، لا يساعدانه والعقل نفسه يتصف أصلاً بالقصور والضعف. (٧، ٢٠،٢١)

ويستقبل العقل معارفه مما تمده به الحواس المقيدة بحدي الزمان والمكان، ويقوم باستخلاص تصوراته مما حوله من أشياء بواسطة مقولاته الذاتية، أو ما هو من مسلماته (٢، ٤٥) من خلال إحصاء الشواهد واستنباط النتائج، (١/م٢/جـ٦، ١٠١)، فيقوم بانتزاع صور المحسوسات من العالم الخارجي ليشكل منها تصوراته التي من خلالها يمكن فهم العالم. والمعرفة عند سيد قطب ليست مجرد الفهم، بل الإدراك الكامل، والإنفعال الذي يتم في النفس بهذا الإدراك. (٨، ٧٢)

ولأن معرفة الإنسان تبدأ بعد حدوثه، فليست هناك أفكار فطرية تكون قد جاءت مع ولادته. (٦، ١١) وموضوع إدراك العقل ومجاله لتحصيل مدركاته هو العالم الخارجي. ولا يستغني العقل ولا الحس عن اللغة، فكلاهما (يعبر عن الصورة الذهنية التي يحدثها إدراك الشيء بلفظ يشير إلى هذه الصورة العقلية أو المعنى). (٥، ٥٧٠)

فالمعرفة أداء لفظ لغرض ما، وهي شعور ينتقل لأداة العمل الحسية وهي عند سيد قطب – المخ – ثم يقوم المخ بإصدار أوامره بوساطة الأعصاب للفظ باللفظة المطلوبة، ويؤكد سيد قطب أن كيفية الإنتقال هذه غير معروفة. (٩، ١٧،١٨)

أما معرفة ما هو كلي مطلق فهي غير ممكنة حتى بواسطة العقل لأن سيد قطب قرر انطلاقاً مما أطلق عليه البدهية الأولى أن (المحدود لا يدرك المطلق). (١/م١/جـ١، ٤٠١،٤٠١)

مراحل المعرفة العقلية:

أولاً: الفهم: حيث يستقبل العقل الآثار الحسية الحاصلة بواسطة الحواس، إما بصورة لفظ ومعنى مجردين، أو تجربة ونتيجتها بشكل جزئي، وهي ترد إليه من خارج الذات، وتبقى هذه الآثار أو الإنطباعات في العقل، متحيزة ومتميزة، حيث توجد فيه خانات وعناوين، فهناك على سبيل المثال خانة للعلم وتندرج تحتها كل عناوين وفصول وأبواب الدين.(٩، ١٧،١٨) فالعقل أول ما يبدأ بتمييز هذه الانطباعات بشكل أولي، أي أنه يتصورها.(٥، ٥٧٣) ثم تكون عملية اختزان الانطباعات من الصور والكلمات والمعاني والمشاعر والتأثرات. والمعرفة المتشكلة في كل هذا لا تكون معرفة بحقيقة ولا تشكل إدراكاً كاملاً. (١/٨م/جـ٣٠، ٤٩٣،٤٩٤) لأن ما ينقصها هو الحكم، فما وقع هنا أن الذهن حصل على صورة الشيء دون حكم.

ثانياً: الإدراك والتعقل:

يريد بها سيد قطب عملية التأليف بين الكلمات والمعاني والحوادث والصور ليشكل العقل منها معرفة، فهو ينتقل من المعلومات إلى العلم ومن المدرك إلى الإدراك ومن التجربة إلى المعرفة. (١/٨م/جـ٣٠، ٤٩٣،٤٩٤) لكن المعرفة عند سيد قطب بصورتها النهائية – أي لتصبح مدركات كلية – لا تحصل إلا بالإنفعال الكامل بموضوع الإدراك، وأن تشتمل على الجانب الروحي. ويعترف سيد قطب أن وظيفة الذاكرة استعادة ما مضى من مدركات، ولكن حتى يتمكن العقل من تحويل المحسوسات إلى مدركات فإنه يحتاج إلى معطيات تسبق التجربة علماً بأنها ليست مفطورة فيه. (٥، ٥٧٣)

ولا يستطيع العقل بأدواته المتاحة له معرفة كنه الأشياء التي تتجاوز حدودها حدود الزمان والمكان، إلا أنه يستطيع إدراك إمكانها إن أحال الأمر لإرادة الله.(٦، ٤٠،٤١)

السببية عند سيد قطب:

عندما نتحدث عن الحوادث في تتابعها وتتاليها نقول إن حادثة منها هي سبب لأخرى، فعلى سبيل المثال إذا ما تعرضت اليد إلى النار فإنها ستحترق فإذا وصفنا ذلك فإننا نقول: إن النار كانت سبب إحتراق اليد، وبهذا نكون قد أقمنا بين النار واحتراق اليد علاقة ضرورية تنطبق على كل حالة مماثلة في المستقبل أو كانت قد حدثت في الماضي. وهذا ما تعورف على تسميته بمبدأ السببية أو أصل العلية.

ولقد أنكر سيد قطب السببية بهذا المعنى*. فالمسلم عنده مأمور بالإخذ بالأسباب طاعة لله، لا اعتقاداً منه بأن الأسباب هي التي تنشيء المسببات والنتائج، فالأمر يتعلق بإرادة الله سبحانه التي تقف وراء تلك الأسباب، فلا توجد فاعلية غير فاعليته سبحانه.(١/م٢/جـ٤، ١١٧) فبإذن الله يفعل السبب وينشيء أثره ويحقق نتيجته. إن اليد ستحترق إذا تعرضت للنار، ولكن ذلك لا يقع إلا بإذنه تعالى؛ لأن الله هو الذي خلق في النار خاصية الحرق وجعل الله اليد قابلة للإحتراق بها. والله قادر على أن يجري سنته بغير هذا ويسلب هذه الخاصية من النار وهو ما وقع لسيدنا ابراهيم عليه السلام.(١/م١/جـ١، ١٢٧)

وعلى الرغم من أن الإسلام يوحي بأن حركة الكون وتحوله المستمرين يتبعان قانوناً ثابتاً، إلا أنه يعيدهما لإرادة الله. وبذلك تنتفي عنهما صفة الجبرية الآلية. كما أنه يعتقد أن الحركة والتحول ليست قوانين خلقها الله ووجهها لتعمل بطريقة آلية وحتمية، ولكنها تتكرر وتطرد، لأن قدر الله مطرد في أمرها. وبهذا لا يرد سيد قطب، كما فعل المعتقدون بمبدأ السببية من الفلاسفة، العلة لفعل الطبيعة. (٢، ٦١،٦٢،٦٣)

---

* وقد اتفق سيد قطب مع أبي حامد الغزالي وديفيد هيوم في انكارها إلا أن هيوم ردها للعادة أما الغزالي فهو كقطب ردها لارادة الله وقدرته.

مفهوم الحقيقة ومعيارها:

يحدد سيد قطب للحقيقة مستويات هي:

١- الحقيقة المادية وهي الحقائق المتأتية عن طريق البحث الإنساني ويمكن التعبير عنها بتجارب المعمل وأدواته المتاحة (١م/٣/جـ٨، ٤١٧)، وتتسم بأنها حقائق غير نهائية ولا قاطعة لأنها (مقيدة بحدود تجارب وظروف هذه التجارب وأدواتها). (١م/١/جـ٢، ٢٥٩،٢٦٠)

٢-الحقيقة الرياضية: وهي ما يقوم على فرضيات أذهاننا، ولأنها فرضية والعقل عاجز عن امداد الإنسان بالمعرفة الكلية من حيث هو محدود بحدي الزمان والمكان ويتكيء على ما تمده به التجربة، لذلك تبقى الحقائق الرياضية حتماً جزئية ونسبية غير مطلقة.(١م/٣/جـ٨، ٤١٧)

٣-الحقيقة الإلهية: وتعتمد الذوق وسيلة لها، فالقلب المؤمن يتذوقها كما جاءت ونزلت من عند الله تعالى.(١م/٣/جـ٨، ٤١٧) ومجالها أكبر من مجال عمل الفكر الإنساني، ولا تتمثل في العبارة لكن العبارة توحي بها. والإنسان يتلقى هذه الحقائق الموضوعية من مصدرها الميتافيزيقي، وتعتبر ميزاناً يرجع الإنسان إليه في كل ما يواجهه من أمور سواء أكانت مشاعر أم صوراً أم أفكاراً أم تصورات، ويميز الصحيح من الزائف. (٦،١٦،٤٥) والحقيقة الإلهية، عند سيد قطب، ثابتة باعتبارها قاعدة الدين، وما يتعلق بها أيضاً ثابت وغير قابل للتغير أو للتطور، ومنها حقيقة أن الله موجود، وأن الكون وما فيه من مخلوقات هي من صنع الله وخلقه .(٦، ٧٤)

إن المعرفة التي تحصل للإنسان بوسائله لا تمدنا بحقيقة ماهية الشيء، وهذا ينسحب على ماهية الله، وكيفية تعلق إرادة الله ومشيئته بخلقه، وحقيقة الروح وهي كلها من الأمور التي لا يمكن للإنسان معرفة كنهها. أما خصائص الذات الإلهية من مثل الوجود والوحدانية فهي حقائق يمكن للذهن البشري أن يدرك ضرورتها ومقتضياتها في الوجود.(٦، ١١٥)

ويرى سيد قطب أن الحقيقة الإلهية غير قابلة للنقض وعلى الواقع أن يتطابق معها لا أن تطابق هي الواقع وذلك لأن الواقع جزئي وهي شمولية. أما ما ندركه من مطابقتها للواقع فهو من باب أن الله خلقها وخلق الواقع، لكن الوحي-النص يبقى مصدر الحقيقة الصادقة (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه). (٦، ١٣٨)

ويرى سيد قطب أن واقعية هذه الحقيقة تكون مبينة على أساس أن الوحي-النص يتعامل مع حقائق موضوعية لها وجود حقيقي ويقيني، ولا يتعامل مع تصورات عقلية مجردة تبقى في عالم المثال لا يقابلها شيء في الواقع. (٦، ١٦٣)

ويؤكد سيد قطب أن ما تقدمه الحقيقة الإلهية (الوحي) من تفسير للوجود يكون مطابقاً للواقع الحقيقي وليس الواقع الذي يعرفه ويراه الناس بوساطة ما فيهم من عقول قاصرة.(٧، ٣) إنه يرى فيها الحقيقة النهائية الأزلية كما جاء بها الوحي-النص، وكل ما عدا الوحي يبقى في دائرة الظن ونتائجه. فما جاء النص دالاً عليه فهو حقيقة حتى ولو كان فوق العقل، لأن هناك حقائق أكبر من مجال العقل كما أن معيار صحتها مختلف تماماً، وهو عند سيد قطب أن يخبر الله عن قيامها ووجودها.(٢، ٤٥،٤٦)

وتأتي الحقائق الإلهية في الوحي كاملة فلا تعالج حقيقة على حساب أخرى، وتبقى كل حقيقة متميزة بحيث لا يكون هنالك إجمال أو تضييع لمعالم تلك الحقائق في الصورة الكلية التي تعرض فيه.(انظر: ٢، ٦٧) وحاجة الإنسان للوحي-النص باعتباره الحقيقة الكلية تكمن في قصور العقل عن الوصول إلى الحقيقة الكلية.

معيار الحقيقة:

يلخص سيد قطب معيار الحقيقة عنده في العبارة التالية: (أقرب الطرق إلى الضمير هو البداهة وأقرب الطرق إلى الوجدان هو الحس).(١٠، ١٨٤) وينقل سيد قطب عن دريبر.* قوله (تحقق علماء المسلمين من أن الأسلوب العقلي

* وهو أستاذ بجامعة نيويورك صاحب كتاب (النزاع بين العلم والدين).

النظري لا يؤدي إلى التقدم، وأن الأمل في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها، ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم الأسلوب التجريبي، والدستور العملي الحسي).(٧، ٧٢-٧٣) فمعيار علم الإنسان الحاصل بالتجربة هو التجربة نفسها، ومعيار صدق الحس هو الحس نفسه. أما الحقيقة الإلهية فيكمن معيارها في ما يظهر للإنسان من آثارها في الوجود (٢، ٤١) وليس ما يكون بصورة تجريدية.

مصادر المعرفة:

أولاً: الوحي:

يتشكل الوحي-النص من مجموعة أحرف صيغت بطريقة يستطيع الناس فهم وادراك المعنى الذي تؤديه في كلمات وألفاظ وعبارات، إلا أنه يتعذر عليهم أن ينشئوا مثلها مما يعرفونه من أحرف، وبهذا فإنها تحافظ على جوهرها على اختلاف الرسل والأزمان. ويستدل سيد قطب على هذا المعنى من القرآن ﴿إليك وإلى الذين من قبلك﴾. (الشورى: ٣) (١٢، ١٨)

وموضوع ومجال الوحي-النص يشمل كل ما يمكن أن يكون تصور المسلم تجاه الحياة والكون والإنسان، من حيث الغاية من خلقه، والوظيفة التي عليه أن يقوم بها، وعلاقته بالكون والله. كما يفسر الوحي-النص النشاط الإنساني وحقيقة النفس الإنسانية والتاريخ وأصل حياة الإنسان.(١٣، ١٣٩) وتقوم نظرة سيد قطب هذه على أساس أن هذا العالم الخارجي والعالم الميتافيزيقي يعودان لله فهما مجال الوحي، والتعرف إليهما يكون بالعودة لله.

أما الحكم على صحة هذه المعرفة عنده فيعتمد على الله مصدر الوحي وكلي المعرفة الذي تتجاوز معرفته أطر المكان والزمان، ويتنزه عن الجهل والقصور اللذين يتصف بهما العقل البشري، ولذلك يرى سيد قطب في الوحي-النص الصورة الكاملة للمعرفة الحقيقة.(٦، ١٩)

وتتميز المعرفة النبوية الحاصلة عن الوحي–النص بأنها عملية تجربة تقع للفرد ويشعر باشتمال قلبه على حقيقتها، ويشعر بوجودها في ضميره، وبمصدرها الميتافيزيقي. (١٢، ٩٩) ويعتبرها سيد قطب أسمى مراتب المعرفة. وهي كلام الله الذي يقع للإنسان بوسائل ثلاث*:–

– وحيا: يلقى في النفس فتعرف أنه من الله.

– أو أن يتم للرسل من وراء حجاب كتكليم الله موسى عليه السلام.

– أو أن يبعث الله رسولاً ملكاً يوحي للرسول ماشاء الله بالطرق التي وردت عن رسوله وهي: أن يلقي الملك في روع وقلب الرسول أمر الله دون أن يراه أو أن يظهر هذا الملك للرسول بصورة رجل فيتحدث إليه حتى يعرف عنه ما يقول.

– أو يأتيه (في مثل صلصلة الجرس).(١٢، ٩٤،٩٥).

– أو أن يظهر الملك للرسول بالهيئة التي خلق عليها، ووظيفة الرسول في كل ذلك هي أن ينقل كل ما أنزل إليه من الله دون أن يخلطه بفكر البشر.(٦، ٤٤)

وعلى الرغم من أن المعرفة النبوية الحاصلة عن الوحي–النص جاءت من مصدر إلهي، إلا أنها بالنسبة لسيد قطب ليست سوى معرفة بخصائص الأمور لا أكثر. ويعلل سيد قطب ذلك بأن الفكر البشري قاصر، ولأن الله يعلم ضعفه وقصوره وعدم قدرته على استقبال الكلي من المعرفة، جاءت هذه المعرفة على صورتها الحالية معرفة بالخصائص لا بالكنه. وهي بالقدر الذي أراده الله للإنسان. ولذلك لا ينبغي للإنسان أن يسأل عن الماهية أو الكنه. إذ أن كيفية وقوعها وتحققها لا يعلمها إلا الله.(١٢، ٩٤،٩٦)

ومن الأمور التي لا يستطيع الفكر الإنساني إدراك كنهها حقيقة الذات الإلهية، فهي مما لا تدركه العقول، لأنه لا يماثلها شيء مما يعرفه الإنسان حتى يقيسها على ما يعرفه، ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾، (الشورى: ١١) وكذلك

---

* ينقل سيد قطب هنا عن كتاب (زاد المعاد) للإمام شمس الدين أبي عبد الله ابن قيم الجوزية.

إرادة الله وكيفية تعلق هذه الإرادة بالخلق، والروح أقصد بها جبريل أم الحياة أم الوحي؟ والغيب الذي لا يعرف الإنسان فيه إلا ماشاء الله له أن يعرف (٦، ٤٧،٤٨).

وتقع المعرفة النبوية (الوحي) في نوعين: **أولهما** ذلك الذي يستطيع الإنسان أن يتصوره عندما يتلقاه من الله، **وثانيهما** مالا يستطيع الإنسان إدراكه، وله منطقه الخاص به الذي يجعله ذا طبيعة تتجاوز حدود إدراك الإنسان، ويتعرف الإنسان إليه من خلال النص.(٢، ٤٥،٤٦) ويوضح هذا – ولكن على نحو غامض – امكان حصول الوحي–النص عقلياً فلا يعود أمراً مستحيلاً أن نتصور بشراً يتمتع بقدرة خاصة يتصل بالقدرة الإلهية. وليس الأمر مقصوراً على الأنبياء، فهناك أشخاص عاديون يشعرون بهذا الإتصال ولكنه لا يدوم إلا للحظات وبما يناسب طبيعة أرواحهم. ولكن أرواح الأنبياء من مثل عيسى وموسى ومحمد فليس عسيراً تصور اتصالها وحصولها على المعرفة عن الله.(١٤، ٣٩،٤٠)

وللمعرفة النبوية (الوحي) أسلوب خاص في عرض معارفها بحيث تربط المعنى الذهني بالحالة النفسية وتبرزها في صورة حسية، فهي تخاطب كل المنافذ المؤدية للنفس البشرية، من حس ووجدان وذهن.(١٠، ١٩٥)

وتتميز هذه المعرفة بما يلي: أ– انها ليست معرفة عامة بل خاصة بالأنبياء وحدهم، وهم الذين اختارهم الله لينقلوها للناس، ومعنى ذلك أنه يعتبرها طريقاً خاصاً في ايصال المعرفة لا معرفة خاصة بالأنبياء؛ لأن الوحي–النص خطاب موجه للناس أجمعين، ويكون تعرف الناس إليه من بعد النبي بالسماع أو الإخبار. وبذلك لا يكون الوحي–النص مصدراً للمعرفة المشتركة مثل الحواس والعقل، وعليه فهي لا تخضع لقواعدهما وقوانينهما، كما أنها لا تخضع لقوانين العالم الخارجي الذي يتعاملان معه.(٥، ٧٢٢) و(٦، ٤٢،٤٤)

ب– إنها معرفة ربانية في طابعها، فالمعرفة الحاصلة عنها لا يكون للرسل دور في انشائها، وتبقى وظيفتهم النقل الدقيق لها وتعليمها للناس.(٦، ٤٤) ولأنها كذلك فإن كل معرفة تحصل للإنسان بوسائله الإدراكية ترد إليه بناء على أن الوحي ومعارف الإنسان المكتسبة كلاهما من خلق الله، (٦، ١٣٨) ولأن القرآن هو كلام الله

الموحى إلى رسوله فإنه يشتمل على المعرفة الأساسية للإنسان، ويؤكد ذلك ما ورد في القرآن الكريم من أن الله علم آدم الأسماء كلها.(١/م٣/جـ٨، ٤٨٨). والآية نفسها تقوم دليلاً على امكانية حصول المعرفة وحيا في مجال النبوة. (٥، ٧٣٥) كما أن في الآية إشارة إلى حاجة العقل والحس لهذه المعرفة حتى يؤديا دورهما. فهي قاعدة ينطلق منها الحس والعقل في تحصيل المعرفة، وباستطاعة العقل فهمها والتسليم بصحتها فأول إنسان خلق كان نبياً.

جـ- وهي كذلك معرفة ثابتة لا تتغير، ولأن الله منزه عن التغير والتأثر بالأمور العارضة، فإن كل ما يصدر عنه ثابت لا يتغير. بينما تتبدل وتتغير المعرفة الحسية والعقلية بحسب ما يطرأ عليها من متغيرات ذاتية وعارضة. (٦، ٧٢) وفيما يتعلق بطبيعة الموقف تجاه الوحي-النص إذا ما وقع تغير ما وحدث وان أستجاب له الوحي، فإن سيد قطب يعلل هذه الاستجابة بأن في طبيعة الوحي-النص ما يسمح بها، لكنه يحتفظ بالحكم على الواقع المستجد وتبريره، فلا يكون ثبات الوحي-النص حجة لرفض تغير الأوضاع والأزمان، كما أنه لايقتضي تجميد حركة الفكر الإنساني والحياة في ظل الوحي. لأن الوحي-النص يدفع الحياة والفكر للحركة ولكن داخل اطار ثابت، بحيث تبقى موصولة بذلك المحور الثابت ازلا وأبدا.(٦، ٧٢)

د - ومن سماتها أنها شمولية، لأنها صادرة عن الذات الإلهية الأزلية الأبدية غير المتحيزة في مكان وزمان، ولأن الذات كذلك فإن رؤية الله للكون تكون شاملة ، فيلزم أن يتصف الوحي-النص بالشمول لعالمي الغيب والشهادة، بينما يبقى العقل محدوداً بما هو موجود في المكان والزمان، أي عالم الشهادة.(١٢، ٩٤-٩٦)

هـ - إنها معرفة متوازنة تجمع بين مايتلقاة الإنسان ليدركه ويسلم به وبين مايتلقاة ليدركه ويبحث في بدهيته وأدلته والعقيدة التي تجمع عالم المادة والغيب وبين حرية إرادة الإنسان وخضوعه لرقابة الله ، وبين احساسه بفرديته وحياته في نطاق الجماعة، وفي الجانب المعرفي لاتتنكر لمصادر تحصيل المعرفة الأخرى، سواء أكانت العقل أم الخبرة الحسية . وقد اعطى الوحي-النص من وجهة نظر

سيد قطب كل مصادر المعرفة اعتبارها الذي يليق بها وينسجم مع طبيعتها، ووضع كلا منها في المكان والدرجة اللذين يستحقهما.(٦، ١٣٧)

و – وتتميز هذه المعرفة بالواقعية في شتى المجالات التي تعرض لها؛ فهي ترى التأمل عملية إدراك او محاولة جادة للتعرف إلى الإرتباطات الكونية والإنسانية . (١٥، ١٥) وهدفها هو العمل على تحقيق هذا التصور الرباني للحياة القابل للتحقق بطبيعته . وهي قابلية تتعدى المشاعر والشعائر إلى الحركة ، وهي مرحلة يتحول إليها الفرد من خلال تأثير النص فيه لاعادة تركيب الكيان النفسي بما ينسجم مع التصور الجديد الموجود في النص.

أما الشعائر فإنها تعبر عن الصلة بين وجدان المرء وقلبه ،ومن ثم تتم عملية ترجمة المشاعر باعتبارها حركة وجدانية ،إلى صور تعبيرية على شكل حركة ولاتختلف المعرفة عن ذلك وتمر بمراحل الفهم ثم الإدراك ثم انفعال النفس بذلك كله.(١٥، ٢٣،٢٤،٢٥،٢٦) وقابليتها للتحقق في عالم الواقع نابعة من أن الوحي–النص، من وجهة نظر سيد قطب، يتعامل مع حقائق موضوعية وليس مع تصورات مجردة. (٦، ١٦٣) وعلى الرغم من أن تعاليم الوحي–النص تبدو مثالية من حيث مصدرها، إلا أن واقعيتها تتبدى في قدرتها على تحويل الفكرة المجردة إلى مجتمع يمثل عالما حقيقيا وواقعيا ، إلى (رجال تلمسهم الأيدي وتراهم العيون). (١٦، ٢٧)

وتمتلك هذه المعرفة النبوية، في اصولها الإعتقادية البحتة، مجموعة من الحقائق النفسية والعقلية تفعل وتؤثر في كيان الإنسان لتشكل انظمة حياته، (١٢، ٨٤) وهي سمة إيجابية تمنح لمن يقبل عليها بروح معرفية مرتبطة بالعمل.(١٣، ١٨) وتتمظهر ايجابيتها عنده في علاقة الله بالوجود والإنسان. وتبدو فاعليتها في دور الإنسان بصورة خليفة الله في الأرض. (٢، ٢١)

إن اعتقاد سيد قطب بأن المعرفة تقود لحركة جعله ينظر لمفهوم الجاهلية – وهو مفهوم يطلقه سيد قطب على كل نظام أو منهج حياة لايقوم على أساس مبدأ الحاكمية لله أو بتعبير آخر هي (الحاكمية للبشر) (١٧، ٢٣) – على أنه لم

يتمثل في نظرية مجردة بل في حركة ، لذا حتى يمكن إحلال المفهوم الإسلامي مكان المفهوم الجاهلي، لابد من معرفة صورة حركته. (١/م٤/جـ١٠، ٦٨) ولذلك نزلت الأحكام التشريعية كلها في مرحلة تكوين الدولة المسلمة في المدينة المنورة، ولم ينزل منها أي حكم في مكة حتى لايكون معرفة نظرية تبقى في الذهن حتى يجيء وقت تنفيذها في المدينة. (١٣، ٣٨،٣٩)

ح- وتتميز هذه المعرفة أيضاً بالوضوح والبساطة لأنها تتعامل مع كل عناصر الإدراك البشري. وإنها معرفة من الله الذي خلق الكون والإنسان، فلا يوجد تناقض بين هذه المعرفة والإنسان فكلاهما من خلق الله وأنه سبحانه يعلم ما خلق. (٦، ١٣٧،١٣٨)

ط- ومما يميز هذه المعرفة سمتها العالمية، فهي موجهة للإنسانية بعامة. ويؤهلها لذلك أنها تمد الإنسان بفكرة جديدة حول الحياة،(١٥، ٣٠) وتجعل حدودها (حدود الفكرة لا تخوم الأرض).(١٨، ٨٣) وبذلك تتعالى المعرفة النبوية (الوحي) على المعرفة الإنسانية العقلية والحسية بقدر تعالى السلطة الإلهية على الإنسان.

ويستخدم سيد قطب موقفه هذا لرفض سلطة البشر، واحتكار فئة منهم فهم الوحي-النص دون غيرها. فكل انسان يستطيع أن يفهم الوحي، وليس هناك ما يدعو الأمة أن تنتظر فيلسوفاً عبقرياً لإقامة دولة إسلامية. (٨، ٧٧) وينتهي سيد قطب إلى نتيجة مفادها أن السلطة المطلقة لله وحده والحاكمية له من حيث هو مصدر كل معرفة، ولذلك رأى سيد قطب أن مبدأ الحاكمية يجب أن يتمثل في كل جوانب المعرفة وفي كل نشاط فكري يقع للإنسان.(١٣، ١٣٦)

ثانياً: العقل:

ذكرت أن العقل يستقبل مدركاته مما تمده به الحواس في حدود صورتي الزمان والمكان، ولذلك كان ما يحصل من معرفة للإنسان محدوداً بهاتين الصورتين، وتبعاً لأن تجربة الإنسان وعلمه يبدءان بعد أن يوجد وبناء على ذلك اعتقد سيد قطب أن أقصى ما يحصله هذا العقل يتناسب مع محدوديته هذه. (٦، ٩١)

ويستطيع العقل أن يدرك قوانين الطبيعة التي تحكم العالم المادي، وهي قوانين تبقى جزئية على الرغم من أنها جزئية في الأصل. ويستنتج سيد قطب من ذلك أن المعرفة الحاصلة عن العقل غير محدودة بحدود جغرافية أو عرقية، وبخاصة في ما يتعلق بالعلوم البحتة وتطبيقاتها.(١٩، ١٦٨)

وتبرز نسبيتها وتدني درجة اليقين فيها عندما يريد الإنسان الإفادة منها في مجال الإنسان، لأن الإنسان عالم تجاوز طبيعته العالم المحسوس، والعقل ليس لديه القدرة على اكتناه حقيقته. (٢٠، ١٠٢،١٠٣) أما معرفة العقل في مجال المادة فهي جزئية؛ لأنه يستقبل ما يرد إليه عنها على صورة تجارب منفردة ومن هنا يتبدى عجزه عن رؤية الكون بصورة كلية، فتنتفي عن أحكامه صفة الكلية التي كان من الممكن أن يقيم على أساسها نظاماً شاملاً لكافة مناحي حياة الإنسان. (١/م٣/جـ٧، ٢٢٧) وحتى العقل نفسه غير قادر على اكتناه حقيقة ذاته، فلا يمكن القول بأنه جوهر، لأن الجوهر مادي، ويمكن أن نطلق عليه لفظ المعطى الذي لا تعرف له ماهية، كما تبقى طبيعة عمله ومكانه مجهولين. وتنشأ عن ذلك صور في حدود ما يمكن أن يقوم العقل باستخلاصه من الأشياء من حوله. فهو يقوم باحصاء الشواهد واستنباط النتائج (١/م٣/جـ٨، ٥٢٥) عن طريق مقولاته الذاتية وما هو من المألوف والمسلم به عنده، (٢، ٤٥) وهذا يعني أن الحواس لا معنى لها إلا بالعقل. لكن هذا لا يعني الغاء دورها، فهي المحطة الأولى للعقل ثم يقوم هو بعملية انتزاع صور المحسوسات ويجردها من المادة لتشكل من بعد معرفة عقلية. فهو إذن يجعل إدراكات الحواس معرفة.

ثم تكون عملية الإختزان للصور والكلمات والمعاني والمشاعر والتأثيرات، ولا تصل معها المعرفة إلى درجة الإدراك الكامل إلا مع الحكم. فهي ليست سوى تصورات في الذهن لا يقال عنها صحيحة أو خاطئة. ولكي تتم عملية الإدراك والتعقل الكامل لا بد من أن يؤلف العقل بين الكلمات والمعاني والحوادث والصور الجزئية.(١م/٨/جـ٣٠، ٤٩٣،٤٩٤)

ومعيار صحة أحكام العقل الوحي-النص الذي يمثل المعرفة الكاملة، فلا يوجد عقل مطلق مبرأ من النقص والضعف، بل إن ما هو موجود هو العقل الفردي.

وعلى الرغم من قصور المعرفة بالعقل عن معرفة الماهية إلا أن العقل لديه موهبة إدراك امكان تلك المعرفة التي يمكن أن تكون معرفة بماهية وكيفية، وذلك من خلال معرفته بإرادة الله المطلقة من جهة ومعرفته بأنه مخلوق حادث من جهة أخرى. وتبقى هذه معرفة قاصرة لأن العقل لا يمكنه رؤية موضوعات الوجود جملة ممتدة في أسبابها وعللها، كما أن العقل لا يتعامل مع مقولات مجردة بمنأى عما يؤثر في الإنسان من هوى وميل. (٦، ١٧٥،٩١)

يعتقد سيد قطب أن وسائل المعرفة العقلية وأدواتها قابلة للتطور والنمو والترقي، وتستند في نموها إلى المعرفة النبوية التي تدفعها وتقودها وتحفظها في إطار الفطرة، وتحول بينها وبين الإصطدام بطبيعة الإنسان وخصائصه. (٢٠، ١٠٤) فللبشر أن يستنبطوا التشريعات لكل طارئ وجديد في حياتهم المتجددة، ولكن في إطار وضمن حدود وأسس وقواعد الوحي العامة.(١٢، ٥٢)

ويحرم سيد قطب العقل من أي فاعلية في وضع نظام شامل لحياة الإنسان تتناسق فيه علاقة الإنسان والكون، (١٣، ١١١) لأنه من وجهة نظره غير مهيأ لإنشاء هذا النظام الكلي، لأنه لا يقع إلا ضمن الرؤية الشمولية للوحي-النص. وإذا ما حاول البشر وضع نظام معتمدين على العقل وحده، حتى لو قام على رضا البشرية جمعاء ("لا بد أن يعرض الحياة الإنسانية، ويعرض نفسه للعطب والدمار").(١٧، ٢٤)

وانسجاماً مع البدهية العقلية القائلة (المحدود لا يدرك المطلق) (١/م١/جـ١، ٤٠، ٤١) يرى سيد قطب أن أحكام العقل غير قابلة للإطلاق على ما هو خارج حدود الحس دونما اعتماد مصادر المعرفة الأخرى وعلى رأسها المعرفة النبوية (الوحي). ولذلك تبقى أحكام العقل لا تتمتع بصفة الضرورة والتعميم. وهذا لا يعني أن مالا يدركه العقل غير موجود، بل إن معرفته لا تقع ضمن اطار العقل. (١/م١/جـ١، ٤٠، ٤١)

ويتحدث سيد قطب عن علاقة اللغة بالمعرفة ودورها في الإدراك، ويرى أن الحس والعقل لا يستغنيان عن اللغة، على الرغم من أن لكل منهما أدواته الخاصة فالصورة الذهنية التي يحدثها إدراك الشيء يعبر عنها بلفظ يدل على هذه الصورة العقلية وما تحمله من معنى. (٥، ٥٧٠) و(١٠، ١٩٥، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٢) فالمعرفة هنا أداء لفظ لغرض ما على شكل شعور ينتقل دون أن يعرف كيف، سواء من الادراك أم من العقل أم من الروح إلى المخ، ويسمي سيد قطب ذلك أداة العمل الحسية، ثم يصدر المخ أوامره بوساطة الأعصاب للنطق بهذا اللفظ. (١/م٧/جـ٢٧، ٦٧٢)

ثالثاً: الخبرة الحسية:

إن ما يجعل الإنسان يشعر بإمكان المعرفة هو استفادته من حواسه منذ يوم ولادته، فهي التي تجعل في امكانه التعرف إلى وجود الأشياءخارجه، وأن لهذه الأشياء صفات وخصائص تختلف فيما بينها وتتمايز عن بعضها. (١٥، ٤٠) ومهما كانت ثقة الإنسان بحواسه إلا أنها لا تقود إلى اليقين، وإذا ما أخذ الانسان بحواسه مقياساً للأشياء، فإنه لا بد واقع في متاهة الخداع، ولذلك يؤكد سيد قطب أن الحواس ليست مصدراً مأموناً للمعرفة، كما أن ما يأتي عن طريقها لا يمكن اعتباره حقيقة، وبعبارة مقحمة، لا يعتبر سيد قطب الإنسان بحواسه مقياساً للحقيقة فقد يرى (اللحظة الصغيرة دهراً طويلاً لملابسة طارئة) أو الزمن الطويل قصيراً. (١/م١/جـ٣، ٤٣٨، ٤٣٩) أما معطيات الحواس فليست أكثر من انطباعات جزئية محدودة فانية على أساس أنها حادثة إذ كل حادث فان. (٢، ١٨٧)

وإذا ما حاولنا أن ننفي الخطأ عن الحواس مسوغين ذلك بقولنا: إن الخطأ ليس في الحواس بل هو في التجربة الصادرة عن الحواس فإن سيد قطب يعيدنا لنقطة البدء نفسها – أي دوام الخطأ والنقص – لأنه يعتقد أننا لو حاولنا أن نستحضر كل التجارب، وظواهر الحياة البشرية كافة بكل أجيالها، فلن يكون ذلك ممكناً. (٧، ٢٠، ٢١) ومعطيات الحواس لا تؤكد سوى وجود الشيء، أما وجود هذه الأشياء فيعتمد على الله الذي يحافظ على وجودها لأنه الموجود الحقيقي، وكل موجود يستمد وجوده منه.(١/م١/جـ١، ١٤)

أ – وسائل المعرفة الحسية:

تقوم المعرفة الحسية عند سيد قطب على الملاحظة والتجربة، وكلاهما جزئي في طبيعته وسماته، ولذلك لا تكون النتائج المترتبة عليها إلا جزئية. (٦، ٩١) وهي بهذا تتناسب مع ما هو مقدر للإنسان بما ينسجم مع طبيعته ودوره الجزئي النسبي في الوجود، إضافة لنسبية الزمن المعطى للبشرية كلها وبذلك تكون المعرفة الواقعة للإنسان بحواسه محصورة في تلك الدائرة الجزئية. ولذلك لا يمكن تعميم المعرفة الحاصلة بالإستقراء والتجربة على كل الجنس الذي وقعت التجربة على جزء منه في كل الأزمنة.(١/م٣/جـ٧، ٢٥٦)

ويشير سيد قطب إلى موقف الإسلام من المعرفة الحسية، ويؤكد فيه أن الإسلام يطلق الإجتهاد في الأمور التي تخضع للحواس لأنه تركها للناس، والرسول(ص) يقول (أنتم أعلم بشؤون دنياكم).(٣، ٢٠٥)

أما ما لا يخضع للتجربة والحواس فيجب أن يعتمد ما جاء به القرآن والسنة الشريفة. فمثلاً معرفة ماهية الشيء متعذرة، لأن ما تنقله الحواس لا يتعدى معرفة الظواهر. فطبيعة منهج العلم الحديث وأدواته وهي كلها حسية أو امتدادات للحواس ليس من شأنها أن تتناول إلا ظواهر الموجودات.

وتنبني التجربة العلمية على التجارب والقياس، ولذلك يسلم العلم بأن النتائج التي يصل إليها ظنية احتمالية. وأن نتيجة كل تجربة ليست سوى عملية ترجيح لاحد الإحتمالات.(٢، ٥٦،٦٥،٦٦)

ب - المكان والزمان:

يرى سيد قطب أن مفهومي القبلية والبعدية من الإصطلاحات التي تعارف عليها الناس وهي من وضع الفكر البشري. وهما عنده عديما الدلالة بالنسبة إلى الله وتبقى حقيقة ماهية الزمان والمكان غير معروفة للإنسان، (١/م١/جـ١، ٦٠) لكن السمة العامة لهما هي فصل الوجود الواحد وتقسيمه، فمفهوم الزمان بفصل الوجود الواحد إلى قبل وبعد والآن ويفصل المكان الوجود إلى قريب وبعيد وحاضر ومجهول و محسوس وغير محسوس،(١/م١/جـ٢، ٣١٤) ويشكل الزمان والمكان حاجزين يحولان بين الإنسان ورؤية الماضي والحاضر والقريب والبعيد منه، ويقصران إدراك الإنسان للأشياء على فواصل معينة فتصبح اللحظة والحيز معلمين يدرك بواسطتهما حدود الأشياء. فتتشكل بينها علاقة التتابع وعلاقة التجاور، لنشكل منها صوراً ذهنية هي اساس المعرفة الحسية.(١/م٧/جـ٢٧، ٧٣٧) وبذلك تنحصر وظيفتا الزمان والمكان في مجال الحس وإذا ما جاوزت هذا المجال فإنها لن تؤدي إلى تشكيل أي معرفة. ولأن سيد قطب يعتبر الإنسان حادثاً بعد عدم، رأى أن الزمان والمكان مخلوقان خلقها الله بين الصور الذهنية في عقل الإنسان، وهي رؤية يبدو أن سيد قطب قد استمدها من ابي حامد الغزالي الذي اعتبر الزمان والمكان مخلوقات لله بين الصور الذهنية في عقل الإنسان، ولذلك كما يبدو واضحاً أن سيد قطب قد اطلع على وجهة نظر كانط فيما يتعلق بصورتي المكان والزمان مع اعتبار سيد قطب أنهما صورتان قبليتان.(٢١، ٣٥)

ان الدور الإيجابي للحواس يكمن في أن ما يحصل عنها جزئي، تقرب للتصور البشري المحدود المعاني غير المحدودة، أما المعنى الكلي بصورته التجريدية فيبقى شارداً في الذهن إلى أن يتلبس بصورة محسوسة، ويستنتج سيد

قطب من ذلك أن العقل لا يستطيع أن يتجاوز الحس أو يخلق ادراكات غير قابلة للتحقق في صورة حسية. (١/م٥/جـ١٦، ٤١٨) لكن أهم ما يشير إليه سيد قطب هو ما يترتب على هذه الطبيعة الانفصالية للزمان والمكان من أحكام، فيرى أن هذه الأحكام كلها جزئية ولها حالات ثلاث، فهي أما يقينية أو ظنية أو مبهمة. (١/م١/جـ٢، ٣١٤) وما يهمنا من هذا التصنيف هو تلك الأحكام اليقينية الجزئية باعتبارها تشكل المعرفة الإنسانية. ويمكن تفسير ذلك عنده بأنها يقينية من حيث صدقها، لكنها تبقى جزئية؛ لأنها تبقى محدودة بظاهرة بعينها في اطار زماني ومكاني معين، فعلى الرغم من أنها صادقة إلا أن صدقها لا يجيز لصاحبها تعميمها، لأن الاستقراء في مثل هذه الحالة يبقى استقراء ناقصاً.

وينطبق هذا على مبدأ العلية، ذلك أن القول بوجود علاقة ضرورية بين العلة والمعلول، وأن العلة بطبيعتها تؤدي إلى حصول النتيجة دائماً، لا يمكن قبوله، من وجهة نظر سيد قطب، ومن الواضح أن سيد قطب قد اطلع على وجهة نظر ديفيد هيوم حول قضية العلة والمعلول والعلاقة بينهما وعلى تأكيد كانط أن أصل العلة والمعلول من الأحكام التأليفية القبلية – فالأحكام التأليفية هي تلك التي لا يمكن (اعتبار محمولها متضمناً في موضوعها). أما القبلية فهي تلك التي تكون فيها (العلاقة بين موضوعها ومحمولها علاقة ضرورية كلية، فلا يمكن إنكار صحتها دون الوقوع في تناقض). ومثال ذلك (الحكم الهندسي القائل بأن "الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين"). فهو حكم تأليفي (لأن تصورنا للمستقيم هو تصور كيفي صرف لا أثر فيه لمعنى الكم المتضمن في محمول "أقرب مسافة")(٢٢، ٦٦،٦٧)–لكن سيد قطب استعاض عن كل ذلك بأن أدخل المشيئة الإلهية في كل علاقة بين حادثين (علة ومعلول)، وبذلك تحدث الأمور بقدر من الله لا من فعل الطبيعة، وأن الله قادر على أن يجري سنناً مخالفة لما اعتدنا عليه من ربط العلة بالمعلول، وذلك حسب مقتضيات حكمته. وبذلك تتحول قوانين الطبيعة من قوانين حتمية تعمل بصورة آلية دون تدخل من الله، إلى قواعد اراد الله اطرادها في الكون، (٢، ٦١) ويستنتج من كل ذلك أن استمرارية هذه القواعد تعتمد في بعدها

الميتافيزيقي على ارادة الله، التي تبدو، اذا ما قبلنا وجهة نظر سيد قطب، تبدو تحكمية اساسها "هكذا شاء الله وقدر".

يتبنى سيد قطب النظرة القرآنية البسيطة القائلة بأن الله خلق الحواس للإنسان ليتعرف بها إلى خلق الله، وأن يتتبع ما في الكون من دقة وانتظام، ليقوده ذلك إلى معرفة الخالق والإيمان بوجوده. (١/٨/جـ٢٩، ٢٦١) أما ما تبقى من حيث حقيقة كنه الأشياء من حولنا، وسر الكون والخليقة، ومعرفة الذات الإلهية وصفاتها، فإنما يعتمد ذلك على الوحي نفسه. ولذلك يعتبر سيد قطب الوحي-النص هو المرجعية في المعرفة الحقيقية، ذلك أن المعرفة الحسية معرفة ظواهر متغيرة حسب تغير الظروف والعوامل المؤثرة فيها، وحتى يكون لها قدر من الثبات لا بد لها من أن تتكيء على الوحي-النص.

ولذلك كانت وسيلة المعرفة الحقيقية هي الايمان الذي تكمن قيمته في أنه الأساس الذي يبني عليه الإنسان معرفته الصحيحة تجاه الكون، وتجاه طبيعته، وقوانينه بصفته مخلوقاً لله.(١٢، ٧٣،٧٤)

وتتميز المعرفة الناشئة عن الإيمان، عند سيد قطب، بالوضوح والعمل، وهي بالإضافة إلى ذلك روحية تمتلك الروح والنفس والقلب والجوارح، وتؤثر من بعد ذلك في الأخلاق والحياة والإجتماع. وعندما تقع هذه المعرفة الإيمانية لفرد فإنها تغمر عقله وقلبه ويظهر من فعل الإيمان ما يحير العقل.(١٢، ٧٦،٧٧،٧٨) ولذلك يفتح النص القرآني للإنسان أبواباً من المعرفة، كالإيمان بالله الذي اعتبره سيد قطب اشراقة تقع في القلب، ونور معرفة للإنسان في حياته. وهو رابطة معرفية يجتمع عليها الناس، وتخرج الإنسان من سجن المعارف الحسية ليتصل بالله الحق.(١/٨/جـ٢٩، ٢٦١) وأخيراً يبقى معيار المعرفة الحاصلة عن الإيمان هو اعتقاد صاحب التجربة الإيمانية وحده. وفي ذلك ما يجعلها تجربة ذاتية شخصية وليس بين ذاتية حتى يمكن معرفة كيفية حصولها للمؤمن والمعتقد بصحتها، ولذلك لا يمكن اعتبارها معرفة يمكن أن يحصل عليها جميع الناس، ومع افتراض حصولها لجميع الناس فإنها تبقى مختلفة من شخص لآخر، مما يفقدها صفة التعميم.

٤- الحدس أو البصيرة:*

يعتبر سيد قطب الحدس وسيلة إدراك الحركة الداخلية في الوجود والحياة والكائن الحي. ويقود الحدس إلى الإعتقاد بأن وراء هذا الوجود الذي يراه (غيباً يستشرفه ولا يراه)،(١٣، ٢٥) ولا تختلف رؤية سيد قطب في الحدس عن الرؤية العامة في الثقافة الإسلامية لما يسمى بالبصيرة، وهي استشراف لما وراء المحسوس، وخارج نطاق الزمان والمكان المعطيين للإنسان. لذلك اعتقد سيد قطب بأن في الإنسان (حاسة ما ... لا نعرف كنهها تستيقظ أو تقوى في بعض الأحيان فتتغلب على حاجز الزمان وترى ما وراءه في صورة مبهمة، ليس علماً، ولكنها استشفاف، كالذي يقع في اليقظة لبعض الناس، في الرؤى لبعضهم فيتغلب على حاجز المكان أو حاجز الزمان، أو هما معاً في بعض الأحيان) (١/م٤/جـ١٢، ٦٩٧) ويستدل سيد قطب على حصول البصيرة بحادثة يرويها عن نفسه فيقول (واستطيع أن أكذب كل شيء قبل أن أكذب حادثاً وقع لي وأنا في أمريكا وأهلي في القاهرة. وقد رأيت فيما يرى النائم ابن اخت لي شاباً وفي عينه دم يحجبها عن الرؤية. فكتبت إلى أهلي استفسر عن عينه بالذات، فجاء في الرد بأن عينه قد أصيبت بنزيف داخلي، وأنه يعالج ويلاحظ أن النزيف الداخلي لا يرى من الخارج، فقد كان منظر عينه لمن يراها بالعين المجردة منظراً عادياً، ولكنها كانت محجوبة عن الأبصار بالنزيف في الداخل ولا أذكر غير هذه لأنها وحدها تكفي).(١/م٤/جـ١٢، ٦٩٧) وحتى لو افترضنا صحة ذلك، وليس لدينا دافع لتكذيب الرجل، إلا أن ذلك ليس معرفة بالمعنى المقصود بالكلمة، بل يظل أمراً مبهماً لا قيمة له، ومع ذلك فإن التحقق من صحتها إنما تم بواسطة الخبرة الحسية التي رويت له من قبل من تأكد من حدوثها.

---

* البصيرة: الحجة والاستبصار في الشيء أو هي عقيدة القلب (انظر: مادة بصر، لسان العرب).

الفصل الثاني

أ. نقد سيد قطب للعقل

تقدم أن العقل عند سيد قطب مخلوق حادث، وباعتباره كذلك فلا أفكار فطرية فيه. كما تفرض عليه طبيعته الحادثة أن تكون رؤيته للأشياء جزئية، ويبقى محدوداً بما يستقبله من الحواس المقيدة بصورتي الزمان والمكان. وبذلك يستقبل الحوادث والتجارب مجزأة، وهذا يعني أن رؤيته للوجود بصورة كلية أمر غير ممكن، وبالتالي لا يستطيع اقامة أحكام كلية، وتظل معارفه تعتمد على إفراد الأجزاء، ويؤدي ذلك إلى تجزئة الواقع والحقيقة بعكس الوحي-النص الذي يعرض ما يحصل عنه من معرفة في سياق موصول يربط الشاهد بالغائب.

ويقوم العقل بالوصول إلى المعرفة وانتزاع التصورات عن ما حوله من الأشياء عن طريق القياس أو الإستقراء، فالقياس يقود إلى أحكام، تظل في نظر سيد قطب ظنية لأنها في الأصل فروض ذهنية لم يتأكد بالتجربة انطباقها على جميع حالاتها. أما الإستقراء فيمكن أن ينتهي بنتائج قطعية، لكنها تبقى محدودة في الزمان المعطى، وهو فردي جزئي.(١/م٣/جـ٧، ٢٥٦) هذا بالإضافة إلى أن العقل موصوف بصفتي الضعف والهوى، اللتين يعتبرهما سيد قطب أصيلتين فيه.

لذا فإن المعرفة الحاصلة عن العقل والأحكام التي يصدرها بناء على هذه المعرفة جزئية وغير مطلقة. ولما كان عالم المادة ميدانه، فإنه يمكن أن يصدر احكاماً لها درجة من اليقين. وعلى الرغم من كل ذلك، فإن العقل لا يؤدي إلا إلى حصول تصور ناقص عن الكون، بينما يقدم الوحي-النص تصوراً متكاملاً له.(٦، ٩١) ونظراً لمحدودية طبيعة العقل فإنه لا يأتي بجديد، بل يكشف عن بعض ما هو موجود، ومن الطبيعي عندئذ أن يقبل ما أتى عن طريق الوحي-النص باعتباره معرفة من غير أصل بشري فيها اضافة إلى ما في الكون من حقيقة.

وإذا ما حاول العقل تجاوز حدود التجربة فربما يقود إلى تصورات مثالية تبقى على مستوى الفكر ولا تجد لها تحقيقاً في العالم خارجه. ولأن العقل كذلك، احتاج إلى ضابط وإلا فإنه سينصرف إلى تصورات غير قابلة للتحقق، وربما إلى رفض الخطاب الإلهي (الوحي) وهو عين ما وقع للعقل الاوروبي. (٦، ١٤) ويستند العقل في بيان المعلومة على الجدل، وهذا يقوم على المهارات أكثر من اعتماده على الحقائق، (١٠، ١٨٩،١٩٠) ولذلك يستنتج سيد قطب أن على العقل أن يقف عند حدود ما يدركه. (٦، ١٨) أما في ما يتعلق بما يتجاوز قوى إدراكه فإن عليه أن يسلم به ما دامت صفة الكلية غائبة عنه.

ويستطيع العقل تدبير أمور الحياة اليومية، أو ماله علاقة بالحياة اليومية، من أمور مادية،(١٠، ١٨٤،١٨٥) لأنه عندئذ يعمل في عالمه، عالم المادة لأنه مجهز بإدراك قوانينه. وإذا ما تجاوز ذلك ليتعامل مع عالم الإنسان فإنه لا يستطيع أن يضع نظاماً له، لأنه غير مجهز بالوسائل الكافية لادراك حقيقته الغامضة. (٢٠، ١٠٢،١٠٣)

ويعتبر سيد قطب عدم انكار العقل للمجهول احتراماً من العقل لنفسه، وحدوده وقدراته. وإذا ما تجاوز ذلك إلى ادعاء معرفته وعلمه بكل شيء وهو في واقع الأمر ما زال لا يعرف كيف يقع له إدراك الأشياء فإن في ذلك استخفافاً للعقل بالعقل نفسه. (١١، ٢٢٢،٢٢٣) ولذلك تبدو المصطلحات مثل القبلية والبعدية لا مدلول لها خارج نطاق العقل. (١/١م/جـ١، ٦٦) وليس في مقدور العقل أن يمد الإنسان بمعرفة مستقبلية يقينية، لأنه لا يملك الوسيلة الكافية لتحصيل مثل هذه المعرفة، ولما كانت هذه المعرفة في علم الغيب، كان على العقل عدم انكار الغيب لأن انكاره يجعله بحاجة لمعرفة يثبت بها صحة حكمه. والمعرفة بهذا المجال لا يستطيعها العقل، وليست خاضعة لوسائله، وليست ضرورية ليتم وظيفته كاملة.(١/١م/جـ١، ٧٠،٧١) وبمعنى أنها ليست لازمة للعقل حتى يقوم بمهمته ولا يعني بها الضرورة المستقبلية.

وسيد قطب في نقده للعقل يقدم مجموعة من العقبات والموانع التي تقف في وجه العقل إن أنكر الغيب والوحي، فيشير مثلاً لحصول أمور كان الإنسان قد

أحس بوقوعها قبل أن تقع، ويتحدث سيد قطب عن قوى مجهولة في الإنسان، فهي إذاً قوى بشرية لم تخضع لتجربة بعد، ولكن ربما بعد حين وأمثال ذلك كثيرة، ولا يجوز للعقل انكار ونفي وجود مثل هذه القوى لمجرد أن العلم البشري ما اهتدى بعد لوسيلة يخضع تلك القوى بها لتجربته،(١/م١/جـ١، ١٢٩) حيث أن المعرفة الإنسانية تراكمية. وعلى الرغم من أن العقل يطور وسائله إلا أنه من غير المتوقع أن يستكملها ربما بسبب محدودية عمر الإنسان الفردي، والجنس البشري عامة. ولذلك فإنه يجب على العقل أن يتوقف عن الحكم إلى أن تتاح الفرصة لوسائله بعد العمل على ترقيتها وتنميتها من أن تدرك ما تعجز الآن عن إدراكه أو يسلم كما يقترح سيد قطب بوجود ما هو أكبر من قوة إدراكه ليبقى ضمن حدوده. (١/م١/جـ١، ١٢٩) وهو ما يريده سيد قطب بأن يبقي للغيب وللمجهول فسحة تمكنه من تبرير مشروعه السوسيوثيولوجي (التشريع الإجتماعي الإلهي).

ويشير أيضاً إلى ما سماه المسافة بين الوجود والعدم، التي يقف العقل أمامها، ولا بد له من رد الأمر كله إلى إرادة صانعة مبدعة.

كما يذكر التمايز بين المادة الجامدة، والخلية الحية الذي لا يستطيع العقل الإحاطة بكيفيتها.(٦، ٩٤) ثم ينتهي سيد قطب إلى الحكم بأن محدودية عقل الإنسان وقدرته على انشاء أحكام في المجال الأخلاقي أوجبت ارسال الرسل. والدليل على ذلك عنده ما ورد في النص من أن الإنسان لا يحاسب على أفعاله سواء أكانت في الضلال أم الهدى، إلابعد أن يبعث الله رسولاً بوحي منه، ثم لا يلبث سيد قطب أن يعتبر ذلك دليلاً على قصور العقل في هذا المجال، وبخاصة عندما يرى أن الله لم يطلب من الإنسان وضع منهج لحياته، بعد ابلاغ الرسالة الإلهية إليه، بل اكتفى بالطلب إليه تطبيقها.(١/م٢/جـ٦، ٦٠٠) ولما كان الوحي–النص لم يترك شيئاً من الأمور المهمة إلا وعالجه ووضع له نظامه الأمثل، فإن العقل لم يبق له إلا أن يجتهد فيما سوى ذلك، وفي هذا تكمن أهمية العقل عند سيد قطب. وتتجلى أهمية العقل عند سيد قطب في أنه قادر على إدراك خصائص التصور الإسلامي ومقوماته كما جاءت عن الوحي–النص، لتكون القانون الذي تكتسب القيم شرعيتها منه.(٦،٤٦) على أن سيد قطب لا يتيح مجالاً للعقل لمحاكمة النص الموحى به، ولكنه يعتبر

مخاطبة النص للعقل بمثابة ايقاظ له وتوجيه.(١/م٢/جـ٦، ٥٩٤) ولذلك يجب أن لا يتجاوز العقل في كيفية فهم النص حدود النص نفسه، بحيث يكون فهمه له حسب معاني العبارة (في اللغة والإصطلاح وعند هذا الحد ينتهي دوره) ولكنه في الوقت نفسه لا يمانع أن يقوم العقل بمعارضة مفهوم عقلي بشري (بمفهوم عقلي بشري آخر له.....).(١/م٢/جـ١، ٥٩٥) ويفسر سيد قطب هذا التعارض في فهم النص بين العقول بعدم وجود سلطة تملي على العقل المقصود بالنص الصحيح وبخاصة عندما يكون قابلاً لتعدد الرأي فيه. (١/م٢/جـ٦، ٥٩٦)

ويقيم سيد قطب محاكمة للعقل في علاقته بالنص فمثلاً، لا يرى أن من حق العقل أن يعترض على ما أتى به النص اعتماداً على أن ذلك ليس جزءاً من مقولاته أو معارفه أو تجربته. وعلى العقل هنا أن يعترف بأن ما جاء به النص هو عين الحق، بينما تبقى معارف العقل تدور بين الخطأ والصواب. كما لا يرى سيد قطب أن يؤطر ما جاء في الوحي-النص ضمن زمان ومكان محددين، ذلك لأن الوحي-النص، كما أراده الله أن يكون، صالح في كل زمان ومكان. فليس من حق العقل انتقاء بعض العقائد والشعائر بما يتفق مع ظروفه هو في حدود زمانه ومكانه، ذلك لأنه لو أراد الله أن يجعل فاعلية النص موقتة بوقت ما، لكان له سبحانه تعالى ذلك، ولا يرى سيد قطب في ذلك انتقاصاً من دور العقل لاعتقاده بأن تطبيق النص على الحالات المتجددة مجال واسع للعقل ينطلق فيه في فاعلية متجددة. (١/م٢/جـ٢، ٥٩٧)

وحول المرجعية هل تكون للعقل أم للنص؟ فإن سيد قطب يرى بأن المرجعية التامة والكاملة إنما هي لشرع الله.(١/م٣/جـ٧، ٣٩) ولا يغني العقل وما يحصل عنه من معرفة عن الوحي-النص، لأنها لا تقوم برهاناً على الدين، بل على العكس من ذلك يقيم الدين برهاناً على ما في الإنسان من قوى مدركة ومميزة. (١/م٤/جـ١٠، ١١٩) وعلى الرغم من نجاعة ما تقوم به، تبقى بحاجة إلى ضابط وموجه من الوحي-النص. ولذلك كانت المرجعية التامة للوحي، من حيث أنه الحقيقة الثابتة.

ثم إن ثبات حقيقة الوحي–النص دليل على عدم تأثر النص بتطور كيفية فهم النص حسب المفاهيم الإنسانية، وما يستجد في المعرفة الإنسانية العقلية من تغيرات، ولو كان الأمر كذلك لتعرضت قاعدة ثبات النص للتغير والتلون والتمييع والأرجحة المستمرة مع تغيرات وتقلبات المفاهيم البشرية. (١/م٤/جـ١١، ٣٨٣)

كما يشير سيد قطب إلى العلاقة المجهولة بين العقل والمادة، إذ لا يرى أن في الإمكان رد أحدهما إلى الآخر.(٦، ٦٩) ولذلك لا يرى أن في امكان العقل تحري حقيقة ذاته، وكيفية تعلقه بالمادة أو تعلق المادة به، إلا إذا ردهما الإنسان إلى حقيقة انهما من خلق الله،(٦، ١٧٥) الذي أراد أن يجمع بينهما، تمثيلاً لارادته وقدرته. ويعتبر سيد قطب هذا الأمر دليلاً على أن هناك أموراً كثيرة تعرض للعقل، ولا يدرك كنهها، ولا يطلب إليه من بعد ذلك مزيد عناء سوى التسليم بها باعتبارها خارج حدود مدركاته. ومن الأمثلة التي يوردها سيد قطب على ذلك ماهية الذات الإلهية، وكيفية تعلق المشيئة الإلهية بالخلق أو سبب الخلق أو كيفيته، وكذلك ليس بوسع العقل إدراك النظام الكلي للكون الذي بموجبه خلقت الأشياء على ما هي عليه وليس على صورة أخرى.(٦، ١١٥،١٢٧)

ويجعل سيد قطب من تأمل الإنسان لنفسه دليلاً على أن العقل* غير قادر بطبيعته على فهم "الحياة" وكيفية نشوئها، وبدلا من ذلك يبتهج العقل بمعرفة الحقائق البسيطة المتعلقة بالأشياء المادية وادراك العلاقات بينها، ويعجز عن حل المعضلات الخاصة بكيفية تركيبه وتأليفه على ما هو عليه. (٢٣، ٢١)

ويعتبر سيد قطب أن ما نسميه البدهيات العقلية، وما ينبني عليها من معرفة، إنما هو دليل على محاولة العقل اضفاء بعض ما لديه على الكون من حوله، وأنها لا شرعية لاطلاقها أو تعميمها خارج نطاق المعرفة الإنسانية. فالهندسة مثلاً دليل على براعة عقل الإنسان، واتقانه في محاولته اضفاء نفسه على

---

* ويتفق سيد قطب، هنا، مع برجسون في أن العقل يتصف بعجز طبيعي عن فهم الحياة.

العالم من حوله، بينما لا تصدق أي بدهية عقلية على العالم في حد ذاته، وسيبقى التقدم الذي يحرزه العقل في مجال العلم محدوداً بالظواهر، ومع صدق مقولاته وبدهياته على الظواهر إلا أنها ليست شمولية في طابعها. وهذا دليل عند سيد قطب على الفرق بين طبيعة المعرفة العقلية والوحي-النص. ومع أن ما يتوصل إليه العقل يخدم أغراضه إلا أنه بعيد عن معرفة الحقيقة التامة للأمور والأشياء، ويبني سيد قطب على ذلك مقولة مفادها أن نجاح العقل في العلوم المتعلقة بالمادة لا يقتضي نجاحاً مماثلاً في المجالات الأخرى، ونجاحه فيما يتعلق منها بالمعضلات التي ذكرنا.

وبناء على ذلك فإن سيد قطب يرى أن كل ماله علاقة بالعلوم الإنسانية والإجتماعية ليس إلا محاولة من العقل لمد قوانينه ومقولاته على حياة الإنسان ونظام حياته، وهو أمر لا يقبله سيد قطب، فما ينطبق على الظواهر المادية يبقى محدوداً بها، أما منهج الحياة والنظام الأمثل للإنسان فهو من شأن الوحي-النص، إذ كيف يتسنى للعقل الذي لا يعرف نفسه أن يشرع لنفسه.(٢٣، ٢٣،٢٤،٣١،٣٢)

وفي خضم كل ذلك نسي سيد قطب نفسه، فماذا لو قلنا إن الله الخالق الأوحد هو الذي أراد للعقل وهو مخلوق له، يشكله على النحو الذي يريد، أراد لهذا العقل أن يكون بوسعه إدراك ماهيته وماهية الأشياء، وادراك النظام الأمثل في الطبيعة وفي حياة الإنسان، وليس في "النص" ما يشير إلى عكس ذلك.

إن الإكتفاء بالقول إن العقل عاجز أو غير مهيأ، وغير قادر، فهو أو لايخدم النص ولا العقل. ثم إن ما ورد في النص عن مخاطبة "النص" للعقل "لذي حجر"، "أولو الألباب"، "أفلا يتفكرون"، أفلا يذكرون ... الخ، دليل قاطع على أن العقل مزود بتلك القدرات، وان لديه من الإمكانات والوسائل ما يكفي - تدريجياً على الأقل - لإدراك بسائط الأمور ومعضلها.

ويشير سيد قطب إلى مسألة هامة وهي العلاقة بين العقل والوجود من ناحية، وتجلي هذه العلاقة في الألفاظ والمصطلحات واللغة من ناحية أخرى. ذلك أنه يرى أن لغة العقل محدودة بتصوراته هو، ولو أتيح لها أن تنطلق وتتحرر من

هذه التصورات لتغيرت طبيعتها ولأصبحت ترمز إلى أمور تختلف عما ترمز إليه عادة. (١/٨/جـ٢٩، ٣٨٤) ومن أجل ايجاد هذا التغيز رأى سيد قطب أن العقل يحتاج للتلقي عن الله تصوراً جديداً ينحو بالألفاظ نحو دلالات جديدة (تنشئ للمسلم تصوراً خاصاً للوجود كله يتعامل معه على أساسه)،(٢، ٧٩) وتمنح الإنسان معرفة صحيحة ليست من صنع العقل البشري بل يتلقاها العقل كاملة من مصدرها الرباني.(٢، ٤٨،٤٩) وبعد ذلك يؤدي هذا التصور الجديد إلى تحرير الكلمة من مدركات العقل المحدودة.

ب- العقل والوحي:

التبعية أو الأولية:

يتضح مما سبق أنه لا مجال للعقل إلا أن يكون تابعاً للوحي-النص في مجال التشريع للحياة، أو في مجال الرؤية العامة للكون، أو في مجال النظام الأمثل المنبثق عن التصور الديني للعلاقة بين الله والعالم. لكن للعقل مجاله المحصور في اطار عالم الظواهر المتقولب في صورتي المكان والزمان والمعطى حسياً، وهو مجال يمكن للعقل أن يبدع فيه ما شاء بشرط أن لا يتحول إلى ادعاء المعرفة بكنه الأشياء وماهيتها.

ومع أن سيد قطب يؤكد أن العقل والوحي أثران من خلق الله، إلا أن الوحي – النص هو الذي يؤسس رؤية ميتافيزيقية للمعرفة التي تنتج الحقيقة المطلقة والثابتة.(٨، ٧٣) وبناء على ذلك يكون الوحي – النص مؤسساً، والعقل تابعاً.

ويعرض سيد قطب في نتف متناثرة ومكررة هنا وهناك ذلك التمايز للوحي – النص على العقل، في محاولة منه ليجعل الأولية أمراً خاصاً بالوحي – النص. فهناك مثلاً تمايز في خطاب الوحي عن خطاب العقل، فخطاب الوحي – النص حيوي يعتمد الإيقاع واللمسة المباشرة، يوحي إلى الحقائق الكبرى، ليخلق فاعلية

من شأنها استنهاض طاقة الإنسان الشعورية والعملية والحركية. وليصوغ من هذه جميعاً رؤية شاملة للحياة وظروفها، رؤية متطابقة مع نواميس الوجود، ومؤتلفة مع الغاية التي خلق الإنسان من أجلها. وهذه أمور كلها تقع وراء أفق حدي الزمان والمكان. وبناء على ذلك فإن الأولوية للوحي – النص على العقل، الذي لا ينشئ إلا صوراً وتأملات من شأنها أن تتعرض بين الفينة والأخرى إلى التصحيح أو الرفض.

إن غاية سيد قطب هنا واضحة تماماً، ألا وهي عدم اخضاع الخطاب القرآني للعقل وتأملاته، فلطالما قصر عناية العقل على ما هو محدود في الزمان والمكان وهو جزئي، فلا شأن له إذن بما هو كلي، وقد قاد ذلك سيد قطب إلى رفض مقولة العقل الكلي، وأبقى العقل فردياً. وقد اتضحت رغبته في عدم اخضاع النص للعقل في قوله إن العقول فردية وكثيرة، واخضاع النص لها من شأنه الفوضى.(٦، ١٩)

ولم يعد بعد ذلك خطاب سيد قطب في معالجة هذه القضية خطاباً عقلياً، بل تحول إلى خطاب دوغمائي، فيدعي أن الوحي – النص جاء لينشيء أمة توسط عهد البشرية في الزمان، لتنهي عهد الجاهلية والطفولة البشرية من قبلها، ولتعمل على حراسة عهد الدين، الذي يراه سيد قطب عهداً للرشد العقلي الذي تحقق للبشرية بالإسلام. كما تعمل الأمة على صد البشرية عامة من الإفتتان بالعقل والمعرفة الحاصلة فيه عنه. أمة هدفها الأساسي المزاوجة بين التراث الروحي للرسالات جميعها وحاصل العقل النامي في ظلها. (١/م١/جـ٢، ١٨٢) فالنص متقدم على العقل فمتى كان النص وجب الالتزام بمدلوله وتجنب النزاع في كل الأمور. (٢٤، ١٨٣) وليس نقصاً أو عيباً في العقيدة أن تحدد عمل العقل ومجاله، لأن العقل قوة محدودة في عملها بالجزئيات. (١٠، ١٩٢) أما الوحي–النص فإنه يصون العقل من تبديد طاقته في محاولة التعرف إلى العالم ما فوق المادي، فهو لم يوهب أصلاً القدرة على الإحاطة به، وبذلك يكون الوحي–النص سنداً للعقل بما يمده به من طاقة روحية تجعله على توافق واتصال دائم مع الوجود. ويعتمد سيد قطب في كل

ذلك على ما وصفه بأنه بدهية مفادها (ان المحدود لا يدرك المطلق).(١/م/١/جـ١٠، ٤١٠،٤٠) لأن العقل يحجبه عاملا الزمان والمكان عن الحقيقة الكلية المطلقة.

وإن كان له أن يعرف حقيقة ما، فإن ذلك ما شاء له الله، ولكن عن طريق غير طريقه، طريقة تنسجم مع الغاية التي رآها الله خالق الإنسان، ألا وهي طريق الوحي. (١/م/١/جـ٣، ٤١٠،٤١٦)

إن سلطة الكلمة من سلطة مصدرها، ولما كان الوحي-النص ربانياً، فإنه يتمتع بسلطة على العقل، ليكون بذلك مرجعيته، وبخاصة فيما يتعلق بحياة الإنسان، والنظام الأمثل المناسب لها. (١/م/٢/جـ٥، ٣٨١) إن العقل يفيد هنا من المبادئ العامة الواردة في الوحي-النص ليطبقها على الجزئيات، ويفيد منها أيضاً في ما لم يرد فيه نص، إذ يوجب سيد قطب الرجوع فيه إلى ما ينطبق عليه ضمناً من النص، (١/م/٢/جـ٥، ٤١٧،٤١٨) وبناء عليه لا يجوز منح العقل سلطة القطع والفصل في الأمور. وإنما يوكل إليه إدراك حقيقة أن الدين من عند الله، وإذا ما سلم بهذه القاعدة – أن الدين من عند الله – فإنه يسلم بكل ما جاء به الوحي-النص. وبذلك يصبح المطلوب من العقل لا يزيد عن العمل على (ادراك دلالة النص وانطباقه)، لا أن يقرر هل تتوفر المصلحة أم لا؛ لأن تحقق المصلحة أمر واقع على اعتبار أن النص موحى به من رب العالمين، (١/م/٢/جـ٥، ٤٦٥،٤٦٦،٤٦٧) فالعقل ينضبط – مع الرسالة – بمنهج النظر الصحيح (فإذا أخطأ بعد ذلك في التطبيق كان خطأه كخطأ الساعة التي تضبط ثم تغلبها عوامل الجو والمؤثرات وطبيعة معدنها الذي يتأثر بهذه المؤثرات، لا كخطأ الساعة التي لم تنضبط أصلاً وتركت للفوضى والمصادفة).(١/م/٢/جـ٦، ٢٠٠٢) وبذلك يرفض سيد قطب أن يخضع تطبيق النص لمعيار المصلحة، بل جعل النص هو الأصل، وأن المصلحة في تطبيقه، وإذا لم تتحقق فإنه يحمل المسؤولية كاملة للعقل.

إن ما يكون للعقل البشري، حسب ما يرى سيد قطب، من خلال تبعيته للوحي-النص لا يمكن أن يتم له إذا ما استهدى بغيره، والتاريخ يقف شاهداً على أن أكبر العقول في التاريخ لم تحصل من المعرفة والهداية مثل ما حصلته العقول

العادية بوساطة الوحي. (١/م٢/جـ٦، ٢٠٠٢) ولست أدري كيف استنتج سيد قطب ذلك، اللهم إلا إذا كان ذلك مبنياً على الإعتقاد بأن في الدين قوة على حشد الناس وجمع طاقتهم حركيا واجتماعيا تفوق كل قوة أخرى، كالعصبية والقومية مثلاً.

ويؤكد سيد قطب أن ما تعين بالنص فليس للعقل رفضه بحجة أنه يصعب تصوره، أو أنه لا يتفق مع منطق العقل، وحتى يتمكن سيد قطب من تسويغ موقفه هذا رأى أن اطلاق الحكم يجب أن يتم في اطار فهم مدلول النص حسب المفاهيم اللغوية والإصطلاحية لذلك النص، لتصبح دلالة النص هنا معياراً لنفسها.(٢، ٤٥) وينسى هنا سيد قطب أن أي معرفة إذا أصبحت معيار نفسها، فإن من يعتقد بصحتها لا بد واقع في الدور على أن ذلك كله لا يعني عند سيد قطب وجود تناقض بين العقل والوحي-النص.

ويوضح وجهة نظره باعتقاده أن ما يقرره الوحي – النص من الحقائق على نوعين: نوع يستطيع العقل ادراكه ونوع ليس بوسع العقل ادراكه، وينطلق سيد قطب في ذلك بأن طبيعة العقل المخلوقة محدودة، وأن ما لا يدركه ليس بسبب عدم وجوده، بل بسبب هذه الطبيعة المحدودة للعقل،(٢، ٤٥،٤٦) لذلك يرى سيد قطب – وهو هنا تحكمي في وجهة نظره – أن ما يثبته الوحي – النص من الحقائق ملزمة للإعتقاد بصحتها.(٢، ٢٩٣) وأن من يزعم بأن للعقل درجة من الأصالة في ادراك الحقائق مثل درجة اليقين في النص، انطلاقاً من أن كليهما من صنع الله فلا بد أن ينطابقا، لا بد مخطيء ولذلك جعل الله حجته على الناس الوحي والرسالة ولم يجعلها العقل، لأنه يعلم مسبقاً أن العقل والفطرة لا بد أن يضلا الطريق وينحرفا عن المسار الصحيح، فكان لا بد من الوحي ليهتديا به. (١/م٣/جـ٧، ٢٢٨) يبدو أن سيد قطب هنا يناقش ما اختزن في ذهنه من التراث الإسلامي، وبخاصة الفكر المعتزلي، مقولة أن العقل مدرك للحسن والقبح في الأشياء والأفعال، وأن الوحي جاء مطابقاً للعقل، وبذلك تتحقق الأولية للعقل على النص.

وعلى أي حال فإن سيد قطب يعطي مجالاً محدوداً للعقل في النص، فالعقل غير مهمل في التلقي عن الوحي إلا أن صراحة النص هي الحكم الأخير، وما يقره العقل يجب أن يقوم على المدلولات النصية الصريحة. (٦، ١٩) ويستدل سيد قطب على احترام الوحي – النص للعقل بأنه أفاد في خطابه من أسلوب الإستجابة وليس أسلوب القهر، أسلوب الحوار والإقناع واحترام كل قوى الإنسان الإدراكية. (٢٤، ١٤٦) وإن ما يجعل العقل قاصراً عن ادراك منزلات الوحي، وايماءات النص، يتمثل في تلك الحواجز والموانع التي يقولب العقل فيها نفسه حسب منطقه وطبيعته.(١٣، ٨٨)

وقد ترك الله الإنسان لعقله وضبطه بالوحي-النص وفي سيرة الرسول الكريم أنه كان متشدداً مع أصحابه في أمر العقيدة، لكنه كان يفتح لهم المجال لطرح تجاربهم في الأمور المتعلقة بالحياة اليومية والعملية المبنية على الخبرة وتراكم المعرفة.(١/م٢/جـ٤، ٢٠)

إن تبعية العقل للنص تكفل له صحة توجه نشاطه الفكري من خلال بناء اجتماعي يضمن للعقل ممارسة نشاطه الفكري ضمن دائرة واسعة في حدود الأسس والقواعد العامة التي جاء بها الوحي لتنظيم حياة الناس.(١/م٥/جـ١٧، ٥٦٩)

وهناك توازن بين النص والعقل فيما يقدمانه من معرفة، ولكن مع وجود فارق واحد هو أن ما يقدمه الوحي-النص هو المصدر الصادق للحقيقة. أما ما يأتي به العقل فهو قابل للخطأ او الصواب.(٦، ١٣٨) ويقود الوحي-النص لواقعية عملية ويستشهد سيد قطب على ذلك بمثل مما يقدمه الوحي والعقل عن صفات الله، فالوحي – النص يقدم وصفاً له يتسق مع واقع الوجود، بينما يقدم العقل تجريدات مفترضة، (٦، ١٦٣) فالوحي – النص يقول مثلاً (ليس كمثله شيء).(الشورى:١١) وذلك يعني أن المخلوقات لا تماثل خالقها، وبذلك تكون المرجعية للخالق وليس للمخلوق. ولما كان الله مبدع الكون وخالقه، فلا مشرع سواه، (١/م٧/جـ٢٥، ٢٧٢،٢٧٣) وبالتالي تكون المرجعية في التشريع للوحي – النص وليس للعقل.

لقد جعل سيد قطب العقل تابعاً للوحي – النص، وقصر نشاطه التشريعي والأخلاقي على اتباع النص ودلالاته،(١٣، ١٢٨) أما في المجالات المعرفية الأخرى، فقد أطلق للعقل حرية التأمل والتفكير، لكنه وعلى الرغم من اقراره بنجاح العقل في تحقيق مكاسب معرفية بالعالم المادي، حدد هذا النجاح بما هو معطى في حدود الزمان والمكان وبالتالي في اطار ما هو محسوس، اما إذا تجاوز العقل حدود الظواهر، فإنه لا بد واقع في تناقضات كثيرة، لا بل إنه يكون قد اشغل نفسه بأمور هو غير مؤهل لمعرفتها، وليس بوسعه اكتناه أمرها. (١/١٨/جـ٣، ٥٤٤) ولماذا يفعل ذلك طالما قدم له الوحي – النص حقيقة كل شيء، إن فعالية العقل ونشاطه خارج حدود ظاهر العالم في نظرسيد قطب، أمر عبثي إذن، والأولى أنه لا شأن له به. إن سيد قطب يطرح كل هذه المعضلات في إطار من رؤية دينية، واعتقاد، لا يحتاجان في ظنه إلى نقاش وبذلك تتحول رؤيته إلى نظرة تحكمية لا تتبع منطقاً، إلا منطقها الخاص.

الفصل الثالث

أ. نقد سيد قطب للفلسفة بعامة :

يبني سيد قطب نقده للفلسفة على نقده لدور العقل في المعرفة. ولأنه كان يرى أن ربط الأسباب والمسببات منوط بالمشيئة الإلهية ، وأن قانون العلة والمعلول ماهو إلا محاولة من العقل لفهم أحداث الكون حسب قوانينه هو ، وليس كما هي عليه الأمور والأشياء، ولأنه يرى أن الفلسفة عنده هي (فرع المعرفة الذي يحاول أن يقرر سببية حدوث الأشياء)، (٨، ١٣٦،١٣٧) لذلك كانت أي محاولة فلسفية لتفسير مايجري في الكون ، بناء على قوانين العقل ، محاولة بائسة ، وقاصرة. (٧، ٢٢،٢٣) ولأن الفلسفة هي محاولة من الإنسان لتفسير الكون والعلاقات فيه على نحو شمولي ، وبناء على ماهو معطى للعقل ، ومألوف له في عالم المحسوس من الظواهر فإنها ستبقى نظرة محدودة ، لأن الإنسان جزء من كون هو أكبر منه ، ولايمكن لمن هو في حال الإنسان أن يدرك مايشمله .

وتاريخ الفلسفة، في مجمله، هو محاولة من الإنسان لتفسير الوجود، ومكانة الإنسان فيه وغايته ، يجعله سيد قطب شاهدا على التفسيرات الفلسفية المفتعلة . وهي غير مستغربة، في نظره، لأن الفيلسوف يحاول تفسير الوجود جملة وليس لديه سوى العقل ، الذي لايستطيع بسبب محدوديته الخوض في مثل هذه القضايا، (٧، ٢٢،٢٣) (لذلك عجزت الفلسفة عن الإهتداء إلى حقيقة العلاقة بين الله والعالم)، وإلى كيفية تعلق مشيئة الله بمايجري فيه. لأنها حاولت دوما تفسير هذه العلاقة وتصوير هذه الكيفية في حدود المألوف للعقل البشري في عالم الحس ، بينما لايشبه الله المخلوقات ، وكيفية فعله مختلفة عن كيفية أفعال خلقه. ولذلك يستنتج سيد قطب أن ماجاءت به الفلسفة من تفسيرات كان تصورا مختلا ، لأن القاعدة التي قام عليها هذا التصور في الأساس مختلة. (٢، ٤٧) ويرد سيد قطب عجز الفلسفة

معرفيا إلى التقابل غير القابل للتفسير بين العقل والحس ، وبين الحس والمادة، وبين العقل والغريزة ، وبين الحياة والمادة.(٣، ٤٧، ٤٨)

ويرفض سيد قطب القول بنسبية الحقيقة، وبدلا يعتقد بوجود حقيقة مطلقة في اطار ميتافيزيقي ديني،(٨، ١٠) وأن نسبية الحقيقة إنما تكون بسبب مايقع للإنسان منها بوسائله المتاحة له . ومايقع له بهذه الوسائل ليس إلا الحقائق الجزئية. ويبني سيد قطب على قوله هذا رأياً في المعرفة الإنسانية ، يقوم على أن الإنسان لايمكن أن يكون مصدر الحقيقة . ويبدو واضحا من قوله هذا أنه أراد أن تبقى مرجعية الحقيقة الوحي ـ النص ، وليس الإنسان .

ويميز سيد قطب بين الحقيقة الحاصلة عن الوحي ـ النص وبين مايحصل للإنسان من معرفة يعتقد أنها الحقيقة. فهو يرى أن للحقيقة المستمدة من الوحي ـ النص قوة حية ، تبعث في النفوس الحركة ، وتدفع الإنسان لتحقيقها في الوجود، بينما تبقى الفكرة الفلسفية فكرة مجردة ، تسكن اذهان اصحابها. (١٦، ١٤٠) ولست أدري من أين جاء سيد قطب بهذا الرأي ، وعلى ماذا اعتمد ، إذ لم تكن الفلسفة يوما بلا بعد عملي ، وأن كثيرا من الفلسفات تحول إلى ايديولوجيات حملت اصحابها على الكفاح من أجل تحقيقها .

ان وجهة نظر سيد قطب هذه تحكمية إلى أبعد الحدود. ومع ذلك نراه يقول والأرض لم تخل في أي عصر من الفلسفة، ومع ذلك لم تقم مقام الإيمان الديني في خلق وبناء مجتمع متوازن ومتسام خلقياً.(٢٣، ١٣٧،١٣٨)

لقد اعتقد سيد قطب أن العقل لا يمكن أن يتوصل إلى وضع مثل أخلاقية عليا ثابتة لا تتغير، وذلك لأنه يرى أن المثل الأخلاقية للعقل وثنية، في طابعها، وأنها تابعة لتطور الأفكار، وتتعدد بتعدد الثقافات، كما أنها لا تدفع الإنسان إلى العمل بموجبها، لأنه لا يحس تجاهها بأي إلتزام. لذلك كان من الواجب تلقي القيم والمثل الأخلاقية عن الوحي واستمدادها من النص.(١٣، ١٤٠)

وينكر سيد قطب امكانية عرض الرؤية الإسلامية للمثل الأخلاقية في قوالب فلسفية، وذلك للعلاقة الوثيقة بين الموضوع والقالب الذي يشتمل عليه.

ولذلك يرى سيد قطب أن ثمة خطراً مؤكداً يتمثل في التشويه الذي يلحق بطبيعة الموضوع نتيجة عرضه في قالب يكون في طبيعته وتاريخه عداء وجفوه وغربة عن طبيعة ذلك الموضوع. وهذا واضح تمام الوضوح عند عرض موضوع التصور الإسلامي في قالب فلسفي، ولذلك يرفض سيد قطب الفلسفة الإسلامية، بما في ذلك مثلاً ما حاوله (اقبال) عندما أخذ عن هيجل، وأوجست كونت لاثبات استمرار التجربة للأنا في عالم الآخرة.(١٥،٦) ولا يلتقي عند سيد قطب الوحي – النص مع الفلسفة على الصعيد العملي. فتاريخ الفلسفة لا يشير إلى أي دور عملي لها في الحياة الإنسانية وعلى العكس من ذلك الوحي – النص الذي دفع البشرية وما يزال في طريق متقدم مؤسس على الأخلاق والوعي، ويسوق سيد قطب مثالاً على ذلك وهو أن القرآن يعرض قضية الألوهية والعبودية في مجال المؤثرات والموحيات الواقعية من مشاهد الكون ومجال الخلق والأمور الفطرية والبدهيات المسلمة، أما الفلسفة فإنها تعرضها في جدل ذهني عرضاً جافاً لا يحرك استجابة الضمير، ولا يؤثر فيه، ولا ينقله إلى مجال التأمل والإيحاء. (١م/٥/جـ١٣، ١٦٧)

ولا يجيز سيد قطب أخذ أي تصور من الوحي – النص منفرداً ومقارنته بأي افكار فلسفية، لأن تفكيك النص يؤدي إلى بتره عن سياقه الكلي، الذي لا يمكن فهم النص بدونه. إن الوحي – النص هو كل شامل. (٢، ٤١،٤٢) ثم إن سيد قطب لا يقبل بوجود أي إنسجام بين الفلسفة والوحي – النص حتى لو حصل واتفقا. وغايته من ذلك ابقاء الأولوية للنص على العقل، وأن صحة النص لا تكمن في انسجامه أو تطابقه مع أي فكرة فلسفية. وبعكس ذلك يرى سيد قطب أن الفلسفة يمكنها أن تأخذ عن الوحي – النص ما يكفل لها الوصول إلى الحقيقة التي تنشدها، وتتخلص مما يعتريها من نقص وجفاف وفي غير ذلك لا لقاء بينهما.

ان الوحي – النص عند سيد قطب هو الذي يزود الإنسان بالحقيقة الكاملة الواضحة البسيطة، (٢، ٤٨،٤٩) بينما تبقى الحقيقة جزئية ناقصة في الفلسفة، ولا يرى سيد قطب ما يمنع من الإطلاع على انتاج الفلاسفة وآرائهم، ولكن ليس بقصد الأخذ عنهم، أو تشكيل تصور جديد للكون والوجود، بل من أجل معرفة مدى انحراف الفلسفة والفلاسفة. (٢٤، ٢٠١)

ب ـ نقده للفلسفة الاغريقية والاسلامية:

نستطيع أن نستنتج من خلال ما وجهه سيد قطب من نقد للفلسفة واتجاهاتها أن اطلاعه عليها لم يكن كافياً إلى حد يمكنه من توجيه نقد مبني على محاكمة لمفاهيمها ومناهجها، وقد أشرت إلى ذلك في ثنايا الرسالة. ومن دلالات ذلك أنه كان يعتمد إما النصوص المترجمة، أو ما كتبه الدارسون للفلسفة الغربية بخاصة من المفكرين العرب، كما أنه لم يحدث أن أشار إلى نص فلسفي لفيلسوف في أحد مؤلفاته.

فهو مثلاً عندما يتحدث عن مفهوم الله والوجود عند كل من أفلاطون وأرسطو وأفلوطين يشير إلى أنه أخذ تلك النصوص من كتابي العقاد (حقائق الاسلام واباطيل خصومه) وكتاب العقاد (الله).(٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٦٥، ١٦٨)

وعندما يتحدث عن موقف فلاسفة الاغريق وفلاسفة المسلمين وفلاسفة العصر الحديث من الوجود وارتباطاته، نراه يشير في الحاشية قائلاً (فكرة الاسلام عن الكون والحياة والانسان ....بحث يرجو المؤلف أن يوفق إلى اخراجه بعون الله).(: ١/م٨/جـ٢٨، ٣٢٨) ولكنه لم يصدر.

وكذلك الحال في حديثه عن خلق الله للسموات والأرض والتناقض بين ما جاء به الاسلام وفلسفات مثل الافلاطونية والمثالية. فلم يشر إلى المصدر الذي نقل عنه. (١/م٣/جـ٧، ٢٨٣)

وعندما يتحدث سيد قطب عن اولئك الذين أنشأوا كتباً للرد على انحرافات معينة، يرى أنها جاءت بانحرافات جديدة، ويمثل لذلك بكتابات محمد عبده ومحاضرات محمد اقبال في موضوع (تجديد الفكر الديني في الاسلام).(٦، ١٨)

أما في حديثه عن الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة فعلى سبيل المثال لا الحصر، فإنه عندما يتحدث عن الداروينية ينقل عن هكسلي بوصفه داروينيا من

كتابه (الانسان في العلم الحديث)، (٢٣، ٤٣) وكريسي موريسون في كتابه (الانسان لا يقوم وحده)، (٦، ٧٩)

وسيد قطب في حديثه عن تطور الفكرة الفلسفية، وبخاصة عند حديثه في مصادر المعرفة، الوحي والعقل والحس، والاتجاهات المختلفة فيها من مثالية أو وضعية أو مادية، يذكر أنه قدم لنا تلك المقتبسات من كتاب الدكتور محمد البهي الذي صدر تحت عنوان ("الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي").
(٦، ٥٩،٦٩،٨٢)

وعندما يتحدث عن (ول ديورانت) بوصفه من دعاة نسبة الحياة للمادة، يشير إلى كتابه (مباهج الفلسفة).(٢، ٤٩)

ويذكر في موضع آخر أن مؤسسة فرنكلين قد نشرت ترجمة جزء من كتابه المذكور. وأن جامعة الدول العربية قد نشرت له "ترجمة أجزاء من كتابه قصة الحضارة .... ويستطيع قارئ اللغة العربية أن يلاحظ موقفه هذا من الاعجاب بهذه الحضارة في جملتها، كما يلاحظ موقفه من الدين جملة، وعداءه الظاهر للاسلام خاصة). (٢٣، ١٣٧)

وهذا دليل على أن سيد قطب ينقل لنا ملاحظاته عن ما طرحه الفيلسوف (ول ديورانت)، ويريدنا أن نعتقد بها بناء على ما قدمه هو، علماً بأن ما قدمه كان مترجماً، كما أن ما قرأه علينا كان جزءاً لا يعبر عن مجمل فلسفة (ول ديورانت) وهي نصوص مجتزأة عن الكل الذي تعرف فيه.

وعندما يتحدث سيد قطب عن الدارونية والماركسية وما طرحته حول أصل الانسان و نشأته يحيلنا إلى كتاب (الانسان بين المادية والاسلام لمحمد قطب).
(١/م/٨/جـ٣، ١٥٣)

وهو في رفضه حديث (رسل) حول نشأة الحياة مصادفة وزوالها بجبرية آلية ينقل كل ذلك عن كتاب (الله يتجلى في عصر العلم).(١/م/٣/جـ٧، ٢١٤،٢١٥،٢١٦،٢١٧)

ولا يشير إلى أي مصدر نقل عنه في حديثه عن أصل نشأة الحياة، ومذهب الإله عند فلاسفة مذهب الانبثاق ومنهم (الماريشال سمطس) وبالاسلوب نفسه يتعامل مع موقف كانط من قضية (الأب والابن والروح).(١/ب/٤/جـ١٠، ١٩٩)

أما فيما نقله لبرتراند رسل في قوله (لقد انتهى العصر الذي يسود فيه الرجل الأبيض... الخ) فيشير إلى أنه استقى النص من جريدة الاهرام بتاريخ ٩آب (اغسطس) ١٩٥١.(١٨، ١٨)

ومن الأمثلة على المواقع التي نقد فيها سيد قطب الفلسفة المادية ونقل فيها عن كتابات مترجمة لكتاب اجانب، ما نقله عن الدكتور" الكسيس كاريل" – وهو عالم أمريكي – في كتابه "الانسان ذلك المجهول"، كما أنه فيما نقله هنا ينقد الفلسفة العقلية وفلسفة برجسون. (٢٣، ١٢،٢١)

وفي مواضع أخرى يبني سيد قطب نقده للفلسفة المادية على اساس نقولات عن كتاب تحدثوا عن هذه الفلسفة (ومثالها الشيوعية)، من مثل "كاريوهنت" المجري في بحثه "الشيوعية نظرياً وعملياً". (٢٣، ١٠٤،١٠٧)

ومثل: مستر دالاس وزير الخارجية الأمريكية في كتابه (حرب أم اسلام) وحديثه عن المادية (الشيوعية)، (٢٠، ٨٢–٩٠) وهو في هذين المثالين لا يحيلنا إلى مصدر موثق نراجعه. كما أنه ينقل ما ينفق وفكرته.

واضافة إلى كل ما، تقدم فإنه في بعض الاحيان يقدم نقداً للمادية (الشيوعية) دون أن يشير لمصدر ما، (٢٥، ١٠٩،١١٢) ولذلك رأيت أن قوله بأنه أمضى اربعين عاماً يطلع على (معظم حقول المعرفة الانسانية) (١٣، ١٤٣،١٤٤) فيه كثير من المبالغة، لأن ما كتبه عن الفلسفة لا ينم عن فهم عميق.

بناء على ماتقدم فإن سيد قطب يرفض أي محاولة تفسير فلسفي يقوم بها العقل للوجود بكافة مناحيه ، وكل مايأتي به العقل من معرفة في هذا المجال لايتعدى أن يكون تصورا تجريديا .(٢، ٢٨٤) وفي الوقت نفسه يرى أن الوحي – النص قد اوضح تلك النظرة الشمولية للكون والوجود ، وعدل في التفكير العقلي بجملته، وعلم الإنسان كيف يفكر تفكيرا صحيحا، يبين ما من شأن العقل ان

يخوض فيه ، وما ليس من شأنه أن يتعرض له، ومن بين ما ليس للعقل فيه شأن قضية الالوهية وعلاقة الله بالوجود والكون .(٢، ٢٨٥،٢٨٦) وتتطبق رؤية سيد قطب هذه على كل الرؤى. وحتى فكرة الله في الفلسفة الإغريقية ، وكل مايتعلق بتلك الفكرة من صفات ، لم تكن سوى فكرة انسانية قاصرة عن ان تعبر عن الله الذي (ليس كمثله شيء). (٦، ٤٨،٤٩) وينتقد سيد قطب بناء على ذلك الفلسفة الاغريقية وبخاصة في ماقدمه الفلاسفة الاغريق من تفسير للعلاقة بين الله والكون.

وينتقد سيد قطب الرؤية الانطولوجية عند افلاطون، ولابد هنا من الإشارة قبل كل شيء الى ان سيد قطب قصر في فهم فلسفة افلاطون ، ولذلك جاءت اراؤه فيها لاتنم عن فهم عميق أو حتى حسن اطلاع عليها .

وعلى أي حال يرى سيد قطب ان رؤية افلاطون الانطولوجية تقسم الوجود إلى طبقتين متقابلتين طبقة العقل المطلق، والأخرى طبقة المادة والهيولى.

ويقصر الفعالية على العقل ، وينسب العجز إلى الهيولى ، وبذلك يصبح العقل فاعلا والمادة قابلة. (٦، ١٤٣،١٤٤) ولطالما ان الوحي – النص (التصور الإسلامي) يؤكد ان الله هو علة كل شيء وكل فعل يقع بإرادته ومشيئته فإنه يبدو واضحاً أن الفعالية المنسوبة للعقل لاتجد لها مكانا في هذه الرؤية . فلا العقل ولا المادة قادران على الفعل أو الخلق .

ثم إن مانسبه افلاطون إلى العقل من أنه لايصدر عنه إلا الخير قول لاقيمة له، (٦، ١٦٥،١٦٦)ثم يرى سيد قطب أن افلاطون يتعامل مع عالم عقلاني مجرد يقابله عالم من المادة غير متشكل وليس بذي صورة، (وهو هنا مخطيء) ، بينما يتعامل الوحي - النص (التصور الإسلامي) مع كون واقعي ، مع عالم تأخذ فيه الأجرام السماوية مكانها ، ويبين حركتها وكل الطاقات والقوى الفاعلة في الوجود، فالكون عند سيد قطب هو هذا الخلق ذو الوجود الخارجي الذي يدركه الإنسان، ويوجه اليه قلبه وعقله،(٦، ١٦٨، ١٦٩)ولم يكن الكون فكرة مجردة لاشكل لها ولا قالب، بل كما قدمها التصور الإسلامي فكرة وإرادة متجلية في الشكل والقالب.

وانطلاقا من تأكيد سيد قطب أن معرفة كنه وماهية الأشياء غير ممكنة، ومايقع للإنسان من معرفة هو معرفة بالظواهر ، فإنه يرى أن الإنسان لايمكنه إدراك حقيقة الله. وفي الوقت الذي يقوم فيه تصور ارسطو إلى هذا الموجود السامي على السلبية ، يقدم التصور الإسلامي صفات ايجابية كمالية فاعلة.

إن الله عند ارسطو، في نظر سيد قطب، لافعل له ولا إرادة، إذ الفعل هو طلب الشيء لامر ينقص والله الكامل غني عن كل شيء، والإرادة اختيار بين أمرين فاضل ومفضول ، وارادة الله ليست كذلك .

وليس مما يناسب الإله، في رأي ارسطو، أن يبتدأ العمل في زمان ، لأنه أبدى سرمدي لاطارئ عليه يدعوه للعمل، فالإله الكامل عند ارسطو إذن لايعنيه أن يخلق العالم . أو مادته الاولى إلا أن هذه المادة الأولية قابلة ، ينقلها شوقها من مرحلة القوة إلى مرحلة الفعل والشوق هذا يفرضه عليها كمال الإله . فهي تعمل وتتحرك بما فيها من شوق وقابلية،(٦، ١٤٦،١٤٧) فالله بهذا الاعتبار لم يخلق المادة ولا شأن له بذلك كما أنه لايشعر إلا بذاته وهو لايعلم إلا ذاته .

ويرى سيد قطب أن ارسطو وصل إلى تصور الله على هذا النحو لأنه رأى في الله المحرك الذي لايتحرك ، وهو متقدم على العالم في وجوده تقدما عليا لاتقدما في الزمان . لان الزمان حركة العالم، فهو لايسبقه، ويؤكد سيد قطب أن أقوال ارسطو فروض لايثبتها برهان . حيث قال بقدم إرادة الله وانها علة وجود العالم ، لذا فالعالم قديم كقدم إرادة الله ، والعلة ليست مفتقرة لسبب خارج عنها فلا موجب لتأخر المعلول عن علته . وقد افرط ارسطو في هذا القياس.(٦، ١٦٧)

وعندما فرق أرسطو بين إله واجب الوجود وكون ممكن الوجود ، جعل الهه هذا سلبيا تجاه الكون، فهو لم يخلق الكون ولا علاقة له بتدبيره . إن الكون يتحرك بشوق كامن فيه لواجب الوجود فينتقل من حالة الامكان الى حالة الوجوب.(٦، ١٨٦) واقوال ارسطو كما يراها سيد قطب ليست الا تصورات ذهن بشري ، لاتقوم على أي أساس صحيح ، فأرسطو يقيس الله على مايعرفه من تصورات البشر. فلا يقتضي أن يكون خلق الله للكون لنقص في كماله لينفيه عنه

ارسطو ، ولايمكن أن يكون عبثا . ويمكن أن (يقال لارسطو : إذا كان هذا الكون - قبل وجوده بالفعل - ليس موجودا فكيف تحرك من مرتبة امكان الوجود الى مرتبة الوجود الفعلي؟).(٢، ٢٤٨)

فعلى ارسطو ان يخبر عن هذا الشيء الذي تحرك حتى نعرف ماهو مع العلم أنه لم يكن شيئاً. ويتساءل سيد قطب عن الشوق الذي حرك الكون من حالة الامكان أين كان ؟ فهو اذا لم يكن شيئا وهو في حالة الإمكان . أفلا توجد إرادة أودعت ذلك الشوق فيه ؟

ويتعجب سيد قطب من كيفية صدور مثل هذه التصورات الضعيفة عن ذهن فيلسوف مثل ارسطو، لكنه يبرر ذلك بأن إعمال العقل في غير مجاله يؤدي إلى مثل هذه التصورات الباطلة.(٢، ٢٤٨) أما التصور الإسلامي فيقدم الحل فهو يقدم وصفا لله لذاته ، ووصفا بالفاعلية والتأثير في الكون وخلقه وإنشائه من العدم وبث الحياة فيه وتعريفها بنظام وتدبير،(٢، ٢٥٦) فيعدل بذلك تصور الإنسان عن الله فيصبح الإنسان يتعامل مع إله موجود خالق مريد مدبر مهيمن قادر، فعله خاضع لارادته وهو كامل الإيجابية وإليه يرجع الأمر كله(٦، ١٤٩)

ويفيد سيد قطب من العقل نفسه في نظرته للكون ، فهو يرى أن العقل نفسه وبحكم منطقه يرد النظام والإنسجام الموجود في الكون إلى إرادة مدبرة وخالقة. (٦، ١٦٥)

ويقدم سيد قطب عرضا مبتسرا لرؤية أفلاطون الانطولوجية ، فيقول عنه إنه حدد فعل الله بدرجة واحدة من درجات المخلوقات وهي العقل (فالواحد الأحد خلق العقل ، والعقل خلق الروح ، والروح خلقت ما دونها من الموجودات...)، (٦، ١٤٤) كما ينطبق انتقاد سيد قطب الذي قدمه على رؤية ارسطو فيما يتعلق بفعل الخير ، على ما رآه أفلوطين وادعاه بأن الخيرية المطلقة لواجب الوجود والشر من الهيولى.(٢، ٢٥١) إن العقل لايمكن أن يكون مقياس الخير والشر ، بل إنه التصور الإسلامي الذي ينشيء في النفس طمأنينة تؤدي إلى الإستقامة.(٢، ٢٩٠)

أما انتقاد سيد قطب للفلسفة الإسلامية فكان امتدادا للنقد الذي قدمه للفلسفة الإغريقية . إذ رأى أن الفلسفة الإسلامية كانت ظلالا للفلسفة الإغريقية. (٢٤-٢٠) ولايرى سيد قطب مكانا للفلسفة في التصور الإسلامي ، واعتبر ذلك دلالة على نقائه واصالته وتميزه وقوته(٦-١٦) وبالتالي كماله ، الذي لايجعله بحاجة إلى أن يبحث عن مايتممه في مايحصل عن العقل من تصورات. ولذلك يرفض سيد قطب وجود فلسفة يمكن ان يطلق عليها اسلامية . وعلى العكس من ذلك يرى أن من الخطأ الظن بأن الفكر الإسلامي لاتكتمل مظاهر نضوجه وكماله إلا بارتداء زي الفلسفة. (٦-١١)

إن ماقام به من يسمون بالفلاسفة المسلمين هو محاولة خلط التصور الإسلامي بمقولات الفلسفة على نحو يجعل التفرقة بين التصور الإسلامي وبين التصور الفلسفي أمرا صعبا ، مما أدى إلى تعقيد كيفية العمل بالتصور الإسلامي منهجا ومضمونا .

ولقد أدت هذه المحاولة إلى تحديد الساحة التي يشملها التصور الإسلامي ، بحدود تصور القالب الإغريقي للوجود ، فكانت النتيجة كما يراها سيد قطب نتاجاً فلسفياً اسلامياً غريباً بصورة كاملة عن منهج الدين وأسلوبه وحقائقه، وأهم النتائج العملية لذلك أن الفلسفة الإسلامية لم تستمر ، وأنها انقطعت في جيلها الأول .

لقد كانت الفلسفة الإسلامية انحرافا ومسخا وتسطيحاً ، لايمكن التخلص من التشويه الذي حصل للتصور الإسلامي ، إلا بأن تلقى عنه جملة كل ماأطلق عليه الفلسفة الإسلامية ومباحث علم الكلام . عندئذ يمكن الكلام عن البحث عن التصور الإسلامي النقي ، ومن أجل ذلك لابد من الأخذ بعين الإعتبار مايلي:

أولا : إن كل ماوصل للعالم الإسلامي من الفلسفة الاغريقية هي شروح متأخرة لتلك الفلسفة ، نقلت بطريقة مشوهة وبلغة سقيمة أدت إلى عدم وضوحها واضطرابها .

ثانيا : عملية التوفيق بين الدين والفلسفة الاغريقية تتم عن جهل بطبيعة الفلسفة الاغريقية، فهي فلسفة وثنية مغايرة في تكوينها وتعدد انظمتها الفكرية ، ومخالفتها بذلك للتصور الإسلامي الذي يقوم على اساس التوحيد .

وهذا ينطبق على مقولات علم الكلام ، التي استقت كثيرا من اللاهوت الذي تأثر هو نفسه كثيرا بالوثنية. فعندما دخل الامبراطور الروماني في المسيحية حمل معه اساطير الرومان الوثنية ، وعندما افاد علماء المسيحية من الفلسفة الاغريقية طبعت هذه الفلسفة الديانة المسيحية بطابع الوثنية واحدثت فيها تشوها في مفهوم التوحيد ، وصارت صورة المسيحية غريبة عن الصورة التي تتفق وماجاء به الرسل . ولذلك يرى سيد قطب ان الفلسفة تباعد بين الإنسان والتوحيد .

ثالثا : إن ما أدى بالمسلمين للأخذ عن الفلسفة الإغريقية هو المشكلات التي حدثت في العالم الإسلامي منذ مقتل عثمان . فلم يعد الإكتفاء بالنصوص كافيا وظهرت الحاجة للتأويل ، فأخذ كل فريق يؤيد وجهة نظره مستعينا بالفلسفة ونظرياتها المختلفة. ويبني سيد قطب على ذلك نظرية ضد التاريخ وسيرورته ، وبعبارة أخرى نظرة لا تاريخية ، إذ يرى أنه يجب رفض كل ماتراكم من معرفة وتصورات فلسفية وكلامية من أجل العودة إلى فكر اسلامي خالص بقوله : إنه يجب عزل هذا التراث كاملا عن فهمنا للإسلام. ويحذر سيد قطب من نظائره فيما يصاغ اليوم في مفهوم التصور الإسلامي.(٦، ١٢،١٣)

إن أهم مايميز التصور الإسلامي عند سيد قطب عن تصورات الفلسفة الاسلامية ، يقوم في أن التصور الإسلامي يقدم الحقيقة الإلهية من خلال بيان اثر القدرة الإلهية في هذا الوجود ، فيتبدى الكون والاحياء كافة ساحة تجول فيها مدارك النفس البشرية لتعرف تلك الآثار بعيدة عن التجريد.(٢، ١٩٠)

مع أن سيد قطب لم يقبل بالفلسفة الاسلامية لا إسما ولا مضمونا ، ولا شكلا أو منهجا ، ولم يشر إلى وجهة نظر فلسفية بعينها ، لكنه رفض بشكل واضح وقاطع نظرية وحدة الوجود . لقد رأى سيد قطب أن التصور الإسلامي

يميز بين الخالق والمخلوق ، ويرى أنهما متغايران ، وأنه ليس بينهما صفات مشتركة أو متشابهة ، وبناء على ذلك تنتفي من التصور الاسلامي فكرة وحدة الوجود . والله ليس حالا في الكون. إن التصور الاسلامي يقدم فكرة جديدة لوحدة الكون والوجود (وحدة صدوره عن الارادة الواحدة الخالقة ، ووحدة ناموسه الذي يسير به ، ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه إلى ربه...).[١/١٨/ج١، ١٤٣، ١٤٤٠]

جـ . نقد سيد قطب للفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة :

ينظر سيد قطب إلى الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة من خلال محاورها الثلاثة ، المثالية التي تحيل كل مافي الكون إلى الذهن أو العقل وتصوراته ، وبالتالي يصبح نظام العالم نابعا من صورة المعرفة الإنسانية له ، ويكون الموجود هو المدرك ، وهو على النحو الذي يدرك.

والواقعية التي ترى أن العالم الخارجي موجود وجودا مستقلا عن الذهن أو أن المادة وتجلياتها هي الموجودة وجودا حقيقيا ، وأن الذهن أو العقل ليس إلا أحد تجليات المادة في صورتها المتسامية. ولذلك كانت المعرفة الإنسانية مقتصرة على كل ماهو مادي وحسب ، وأن مايتجاوز الطبيعة لاوجود له ، وحتى لو كان موجودا فلا علاقة للإنسان به . والحياتية التي تعتبر الحياة هي القدرة المبدعة التي تستخدم المادة والعقل من أجل تطوير نفسها.[٢، ٦٠]

ومع أن نظرة سيد قطب قاصرة عن ادراك الرؤى الفلسفية المختلفة في اطار الفلسفة الغربية ، إلا أنه يعتمد في نقد الفلسفة الغربية على نقده للعقل ، من ناحية أخرى .

ويعزو سيد قطب نشوء مثل هذه الإتجاهات الفلسفية في الغرب إلى رغبة الذهن الغربي في ترسيخ فصل الدين عن الدنيا. فالفكر الغربي وما أنتجه هذا الفكر في حقول المعرفة مبني على عداء ورواسب مسممة بالعداء لأصل التصور الديني عموما.[١٣، ١٤٨] وكذلك من حيث أن الفلسفة الغربية هي امتداد للفلسفة

الاغريقية ، وسيد قطب هنا ينقل عن كتـاب (الدعـوة إلـى الإسـلام) تـأليف (ت. و. أرنولد) الترجمة العربية، التي كما ذكرنا اعتبرها فلسفة وثنية لاصلة لهـا بـالدين . ويتضح ذلك في كل الاتجاهات الفلسفية الغربيـة بمـا فيهـا المثاليـة.(٦، ١٣٠) ومـع أن سيد قطـب لاينكـر دور الحس والعقل فـي تحصيـل المعرفـة ، إلا أنـه لايقبـل أن تتحصر مصادر المعرفة فيهما ، بل يجب الاعتراف بـأن هنـاك مصدرا موثوقـا للمعرفة هو الوحي - النص. (٦، ١٢٨) لابل يتجاوز ذلك إلى حد جعل هـذه المعرفـة هي معيار الصحة والخطأ في الإدراك الحسـي والعقلي ، وبخاصـة تجـاه القضايـا الأساسية التي تعالجها .

ومن هنا جاءت نظرة سيد قطب إلـى فلسفة عصـر التنويـر التـي اعتبرهـا محاولـة لابعـاد الديـن واحـلال العقـل محلـه، بعـد ان كـان الديـن يعتـبر المصـدر الأساسي للمعرفة في العصور الوسطى.(٦، ٥٩،٦١)

ويتساءل سيد قطـب عـن أمـر العقـل الـذي اوكلـت اليـه هـذه الفلسـفة امـر المعرفة بعيدا عن الله . وفي ما اذا كـان بامكانـه تحصيـل معرفـة بماهيـة الاشـياء ومكانه هو نفسه في الطبيعة ، وطبيعته وقانونـه الـذي يعمـل بموجبـه، ويقـرر سـيد قطب بأنه على الرغم من الحديـث طويـلا عـن امكانـات العقـل والعمليـات الذهنيـة المعرفية من استقبال المدركات ، والتأليف بينها، وعمل الذاكـرة ، إلا أنـه لـم يقـدم حتى الآن جوابا شافيا.(٦، ٦٥،٦٦) لقد اختارت الفلسفة المثالية العقل واعطتـه صفـات الله (١م/٣م/جـ٧، ١٢٦) ، بينما انكرت المذاهب الطبيعية وجود العقل منفصلا عن الطبيعة واعطته صفات المادة ، وجعلت المادة فاعلة بدلا من الله .

ويؤكد سيد قطب أن الأساس العقلي لهذه الفلسفات يتجاوز الواقع ، بينمـا إذا نظرنا إلى التصور الإسلامي ، فإنـه يبقـى فـي داخلـه ولايتجـاوزه ، ويعطـي لكـل شيء حقه. ولذلك نراه ينتقد الفيلسوف المسـلم إقبـالا لأنـه اسـتعار القـالب الفلسـفي الغربي ليعرض فيه التصور الاسـلامي ، مـن أجـل إثبـات الاسـتمرارية للأنـا فـي الدار الآخرة . ويبين سيد قطب خطأ اقبال في أن التجربـة (بمعناهـا الاصطلاحـي الفلسفي الغربي لايمكن ان تشمل الجانب الروحـي أصـلا . إلا أنهـا نشـأت ابتـداء

لنبذ كل وسائل المعرفة التي لاتعتمد على التجربة الحسية).[٦، ٢٠] ويورد سيد قطب مثالا على ذلك الفلسفة الوضعية التي يقول إنـه تستوي فيها مصطلحات الطبيعـة والحقيقة والواقع والحس . ولذلك أصبحت الطبيعة مصدر المعرفـة اليقينيـة، لأنها هي التي تنشيء الحقيقة في عقل الإنسان ، وهي بالاضافة إلى ذلك تكـون العقـل ، وتشكل ما يملي على الإنسان من معرفة . أما ماوراءها فهو خداع وليس بحقيقـة . ومايتصوره العقل عن نفسه مستقلا عن المادة والمحسوس وهم . والأهم مـن ذلـك أنها بذلك تنكر الوحي ، وتزيف حقائق الدين وترفض الفكـرة الأساسية فـي الديـن وهي الايمان بالله.[٦، ٦٣-٦٥] ويؤكد سيد قطب أن الطبيعة نفسها ليست كائنـا محـددا ولاذاتا كلية وليست لها حقيقة مستقلة عن تصور العقـل . وإذا كـانت الطبيعـة هـي التي (تنقش الحقيقة في العقل الإنساني فلماذا العقل الإنساني بالذات ؟ أليست تنطـق وتسمعها كل الكائنات الحية؟)،[٦، ٦٩] وإذا كانت هي التي تنقـش الحقيقـة فـي العقل الانساني فما هي هذه الحقيقة؟ هل هي الحقيقة الحاصلة عندما كان العقل يجزم بأن هذا العالم الخارجي ليس شيئا سوى مايصوغه العقل عنه ؟ أو هل الحقيقة والعقل ليس شيئا سوى انعكاس المادة ؟[٦، ٧٠] ومع أن هذه الفلسفة تعالج هذه الأمـور إلا أن سيد قطب ينكر أن تكون الحقيقة إلا ما أتى به الوحي - النص.

وعن الإنسان يرى سيد قطب أن الفلسفة الوضعية لم تأخذ الإنسـان إلا مـن جانب واحد هو الجانب المادي البحـت . مـع أن ساحة الإنسـان فـي الكـون اوسـع وأكبر من أن تتمثل في هذا الجانب وحده.[١٥، ٣٧] وهي بذلـك تعطـل أحـد عنـاصر الإستجابة، وأحد مقومات الكينونة البشرية وهو الجانب الروحي والفكري.

وعلى أساس أن كل ماهو مادي يقع ضمن اطار الحـوادث ، قـامت الفلسـفة الغربية بالنظر إلى التاريخ على أساس الحادثة ، بينما يجب أن يتم تفسير التاريخ ، ومن أجل ذلك يرى سيد قطب أن الاكتفـاء بالجـانب المـادي (الإقتصـادي) لايكفـي لتفسير التاريخ . بل لابد من ادراج مقومات الكينونة البشرية بكافة جوانبها في هذا التفسـير سـواء أكـانت المقومـات الروحيـة أم الفكريـة ام الحياتيـة . أي المقومـات المعنوية بالاضـافة إلى المقومات المادية،[١٥، ٣٨] وبناء على ذلك كان التفسـير الـذي يعتمد الجانب المادي وحده تفسيرا ناقصا .

لقد أدى هذا النوع من التفسير إلى اعتبار اوروبا محور الحدث في العالم، وأن تاريخ اوروبا هو تاريخ العالم ، وأن العالم لابد سوف يمر بمراحل التاريخ نفسها التي مرت بها اوروبا. وسيد قطب اذ ينكر ذلك يؤكد ان اوروبا لم تكن يوما محور العالم في كل عصور التاريخ.[١٥، ٤٠،٤١] وعلى العكس من ذلك يرى سيد قطب أن ما حققته اوروبا من نهضة علمية قائمة على التجريب يعود إلى تراث العالم الإسلامي.[٧، ٧٠]

لقد شدهت هذه الإنجازات العلمية العقل الاوروبي وجعله ذلك يميل إلى اسقاط دور الله لأسباب منها انه لايرى مكانا لهذا الإله او فائدة ترجى منه في عالم المحسوس طالما يتجاوز في وجوده هذا العالم .

ومن هنا أيضا يفسر سيد قطب عدم رغبة أوروبا في قيام دولة على أساس الدين ، لأن في ذلك تجاوزاً لهذا العالم ، واعتماد مناهج وانظمة لاتنتمي إليه، ولذلك ركز اهتمامه على الفكرة العملية ضمن حدود الحس والتجربة. [٢٣، ١٣٠] وفي ذلك انكار لوجود إرادة وراء الطبيعة تقوم على تعريف أمور الكون ومن ضمنها أمور الإنسان.[١٨، ٨٨،٨٩]

إن سيد قطب يرى في الفلسفة الوضعية والفلسفات المادية ، والتوجهات في الفلسفة الغربية بعامة لاستثناء دور الله خطرا يتهدد الأديان كلها ، وبخاصة الدين الاسلامي ، ودور التصور الإسلامي في صياغة الحياة الإجتماعية للمسلمين، ولايرى دورا للاتجاهات الوطنية في التغلب على تغلغل التوجه المادي وانتشاره في العالم،[٢٥، ٥٩] ولذلك يضع الدين الاسلامي وتصوره للحياة والكون وجها لوجه أمام توجهات الفلسفة الغربية .

ويؤكد أن النظام الاجتماعي يجب أن ينبثق من التصور الاسلامي للوجود ، ولمركز وغاية الانسان فيه.[٢٠، ١٢] والتوجه المادي غريب عن الاسلام ، لا بل إنه متأصل في أوروبا منذ عهد الرومان ولم تستطع المسيحية ازالته. [٦، ١٣]

إن المادية الغربية مهما تعددت اشكالها واحدة، وعلى سبيل المثال تمتاز الماركسية على البراجماتية بأنها تعطي مساحة أوسع للمبادئ،[١٨، ٢٢] وكذلك تسمح

المادية الشيوعية بامتداد الحياة في ظلها حينا من الزمن لكنها تبقى جميعا في الاطار نفسه . ولذلك تبرز الحاجة للتصور الاسلامي باعتباره فكرة أكبر من تلك التي تنتهي في أمد قريب. (١٨، ٣٠)

إن التصور الإسلامي يقدم نماذج ثابتة للمثل الاخلاقية والاجتماعية، بينما ترى الفلسفات المادية عدم ثباتها وتطورها . ويرى سيد قطب أنه لاتعارض بين وجود المثل الثابتة والتطور الدائم ، ذلك لأن التصور الاسلامي تجلى في صورة (مبادئ كلية وقواعد يمكن ان تنبثق منها عشرات الصور الاجتهادية)، وتختلف التفريعات والتطبيقات دون أن تصطدم بالاهداف الثابتة.(١٨، ٤٨،٤٩) ولذلك يستنتج سيد قطب أن التصور الاسلامي ليس سكونيا ، بل قوة محركة تدفع للتطور والنماء .

إن التصور الإسلامي عند سيد قطب يقدم نظاما متكاملا ، تتموضع فيه كل الاتجاهات والأفكار على نحو يكفل تحقيق حياة اجتماعية فضلى.(١٨، ٨٧) ولايمكن ان تكون الفلسفة المادية عالمية في رأي سيد قطب ، فأي نظام عالمي لايقوم ، ولايمكن ان يحيا دون حرية في الإعتقاد . لذلك بقيت الفلسفات المادية في حدودها الضيقة .(١٦، ٨١)

وعلى الرغم من أن بعض المنظرين في الفلسفة المعاصرة مثل (ول ديورانت) اعترف بأن حرارة الايمان أوجدت اتزان العقل ، إلا أنه بقي مصرا على رأيه في إحلال الفلسفة محل الدين.(٢٣، ١٣٧،١٣٨) لكن سيد قطب يذكر أن التاريخ لم يخل من فلسفة لكنها ابدا لم تحل محل الدين .

وقد اعتقد اتباع الفلسفة المادية أنها تمثل دعوة للتحرر ، لكن سيد قطب يرى أنها تقصره على الجانب المادي فقط ، وهو تحرير ناقص ، لأن الإنسان تحت ضغط الظروف المادية قد يتنازل عن حقوقه النظرية التي توجب له العدالة والمساواة . ولايكون التحرر كاملا إن لم يشتمل على التحرر الوجداني داخل الضمير ، لأن الإنسان عرضة لضغط الضرورات والاستعدادات ، والدعوة

للتحرر عنده تستند لاصل وجداني عميق يتساوى فيه شعور القوي والضعيف. (٢٤، ٣٣)

ويناقش سيد قطب مقولة استثناء الله من أي دور له في التعرف إلى الكون في قول (ول ديورانت) عندما قال: إن الفلسفة تتعلق بالله (ولسنا نعني اله اللاهوتين الذي يتصورونه خارج عالم الطبيعة ، بل إله الفلاسفة. وهو قانون العالم وهيكله ، وحياته ومشيئته. فلو كان ثمة عقل يدبر هذا الكون فإن الفلسفة تود أن تعرفه وتدرك كنهه . حتى تسايره ـ في الفكر...).[٢، ٤٦،٤٧،٤٩] ويرى أن ذلك لوثة من لوثات الفكر الغربي.[٢، ١٠١]

ومع أن سيد قطب يرى أن بعض الفلسفات تقرر وحدانية الله ، (ولكن بعضها ينفي عنه الإرادة وبعضها ينفي عنه العلم ، وبعضها ينفي عنه السلطان) والملك، وبهذا يصبح هذا التصور سلبيا ، لاقيمة له في مشاعر وواقع من يعتنق هذه الفلسفات.[١/م٢/ج٥، ٥٣٢]

ولما كانت الفلسفة المادية تقوم على أساس أن المادة لاتفنى ولاتستحدث ، يرى سيد قطب وبناء على وجهة نظر تحكمية أن المادة ليست قديمة ، وأن العالم ليس ازليا بل مخلوق وحادث ، لأنه لايمكن أن ينشأ نشأة ذاتية.[٢، ٣٢٠] لذلك فهو من خلق الله ، أنشأه بقصد وإرادة. والقول بأن الوجود الإلهي لم يكن سابقا على وجود الكون، أو كما ورد عن برجسون اعتقاده بأنه لاضرورة ولا مبرر لافتراض وجود عدم قبل الوجود،[١/م٣/ج٧، ١٢٦] حتى يكون الله علة له ، أمر لايقبله سيد قطب ويرى أنه إذا عدنا إلى العقل نفسه فإنه لايقبل تصور نشأة كون بهذا النظام الدقيق نشأة ذاتية ليس وراءها إرادة مدبرة. [٢، ٣٥٤]

وليس الكون فكرة وإرادة كما يقول (شوبنهور) وأن الفكرة كاملة والإرادة ناقصة ، بل إن كلاهما من خلق الله، وهو الذي يوصف وحده بالكمال المعرفي. (٢، ٢٥١)

وحديث الفلسفة المادية عن أصل الحياة لايقوم على أساس صحيح. فالعلماء المسلمون عندما يتحدثون عن صفات المادة الجامدة ومراتب الحياة ، يردون كل ذلك إلى تقدير الله وفاعليته .

والتصور الاسلامي في ذلك واضح وصريح يقول بأن الإنسان خلق خلقا مستقلا،[٧، ٢٣] وأن أصل الحياة واحد هو عنصر المادة، والأشياء كلها تشترك في خاصية واحدة خاصية التزاوج . والإنسان أرقى نماذج الحياة صاغته يد الله من مادة الكون الأولية وهي الطين .[١٤، ١٩]

ويظن سيد قطب أنه بذلك يرفض الداروينية. ويعتقد قطب بأن (إنسانية الإنسان خاصية ثابتة منذ البدء)،[٦، ٧٣] والفلسفة المادية لم تقرر هذا بعد . فالمادية في أخذها بمذهب التطور لم تتناول سوى جزئية سطحية من جزيئات هذا الكون لكون بدايتها بعد أن توجد الحياة ولاتصل لمصدر الحياة ، ولايمكن أن تمتد الى إرادة الله ، التي صدرت هذه الحياة عنها. ويعتقد سيد قطب أن سبب رد الحياة إلى الطبيعة هو الهروب من الكنيسة.[٦، ٧٩]

كل ذلك لأن سيد قطب لايقبل القول بأن الحياة خاصية من خواص المادة كامنة فيها أصلا .[٢، ٢٤٩] متسائلا عن كيفية بقاء هذه الحياة كامنة في المادة أمدا لتبرز في وقت لايعلمه أحد ودون أن تقدم مسوغا واحدا وراء ظهورها، ودون هدف محدد من هذا الظهور.

وعلى فرض أن في المادة حياة فإنها ستبقى بحاجة إلى واهب للحياة.[٢، ٥٦،٥٧] وماقاله دارون من أن الماء هو مهد وأساس الحياة حقيقة قالها القرآن من قبل (وجعلنا من الماء كل شيء حي).[الأنبياء: ٣٠] فنظرية دارون (لاتعارض مفهوم النص القرآني في هذه النقطة بالذات)،[١/م٥/جـ١٧، ٥٣١] لأن أساس نشأة الجنس البشري هي الطين ، وتكرار أفراد هذا الجنس من بعد كان لسنة الله في خلقه وحكمة أرادها في أن يكون ذلك عن طريق نقطة مائية تخرج من صلب رجل، ولايمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبته الحيوانية فيتطور إلى مرتبة الإنسان تطورا آليا مثلما قالت النظريات المادية،[١/م٦/جـ١٨، ١٦،١٧] (فهناك عوامل وراثة كامنة في

خلية كل نوع تحتفظ له بخصائص نوعه، وتحتم أن يظل في دائرة النوع الذي نشأ فيه)،[١/م٦/ج٢١، ٥١٤] ولايمكن له أن يجاوز نوعه بأن يتطور الى نوع جديد.

ومما يدلل به سيد قطب على خلق الإنسان خلقا خاصا أن الروح الأخلاقية متأصلة في فطرة الإنسان ومتجذرة فيها. ويقوم الدين بتنظيم وتوجيه هذه النظرة،[١٦، ٤٩] وبذلك ينفي سيد قطب فكرة المنفعة كأساس للاخلاق إلا إذا كانت مبنية على أساس أن المنفعة هي مصحلة الإنسانية العليا.

ويتساءل سيد قطب عن محاولة الفلسفة التي ترجع الأخلاق للمصلحة؛ أهي مصلحة الفرد أم مصلحة المجتمع: وأية طبقة في المجتمع وأية أمة في الأرض. (ثم إن رؤية المصلحة ليست بهذا القدر من السهولة من بشر علمهم محدود ، فهو ميزان أولا غير مضبوط ، وثانيا غير معتمد على علم وثيق).[٢، ٢٩٢،٢٩٣] ولاعبرة بما تلح عليه الفلسفة المادية التي ترد الاخلاق والعلاقات الاجتماعية إلى أداة الإنتاج ومصلحة الطبقة ، حيث يترتب على تغير أداة الانتاج تغير نوع العلاقات ، وهذا غير صحيح لإن الإنسان هو الذي يغير ادوات الانتاج بيده وبفكره وهذا ماسكتت عنه الفلسفة المادية.[٢٣، ٨٩،٩١]

ثم إن سيد قطب لايقبل قيام الاخلاق على أساس ما يتواضع عليه المجتمع وفرضه على الأفراد ، مثلما يقدر اصحاب نظرية العقل الجمعي وعلى رأسهم دركايم.[٢، ٢٩٠] إنها رؤية قاصرة لأنها قابلة للتأثر بشتى الضغوط فضلا عن نها لاتملك صفة الالزام إلا عند الندرة من البشر . بينما يرى سيد قطب أن الأخلاق نظام يحكم الحياة ولا بد لقيامه وفاعليته من أن تكون له صفة الالزام لدى البشر، وهذا لايكون إلا بأخلاق من مصدر رباني . وهي في التصور الإسلامي تنبع مما يحبه الله لعباده ويرضاه لهم.[٢، ٢٩٣]

إن الإهتمام بالجانب المادي عند سيد قطب واجب من ناحيتين: الأولى بوصفه ضرورة ذاتية لوجود الإسلام. والثانية ، لانه واجنب يفترضه التصور الإسلامي على الإنسان لخلافته في الأرض. [١٣، ١٢١] لكنه ينكر أن تكون القيمة العليا للمادة فقط.

لقد كان سيد قطب تحكميا في نقده للفلسفة الغربية ، مثلما كان نقده للعقل . ثم إن معالجته للفلسفة الغربيـة كثيرا ماكـانت تتـم عـن عـدم اطـلاع إلا علـى هـذه الفلسفات كما وردت نبذ عنها في الكتب المؤلفة باللغة العربية، لأنه قلما اشار إلـى فيلسوف في كتاب أصلي له. ثم إن فـي الفلسـفة الغربيـة اتجاهـات متعددة بعضـها لايعرض للقضايا التي طرحها سيد قطب لا من قريب أو بعيد .

لكن نقد سيد قطـب للعقل والفلسـفة كـان بمثابـة دفـاع الوحـي ـ النـص، أو التصور الإسلامي كما سماه ظنا منه أنه بنقده للفلسفة يدافـع عـن الديـن وأصولـه. بينما كان الأجدر به تأصيل الاطر والانظمة الدينية من خلال التصور الاسلامي ، في الحياة الاجتماعية للمسلمين . لقد بذل سيد قطب جهـدا كبيـرا وتجشـم عنتـا فـي نقده للعقل والفلسفة ، ولو أنه كان يهدف إلى غير ما ذكرت ، لكان الأجـدر بـه أن يرى أن الدين نفسـه نـزل علـى الإنسان لأنـه صـاحب عقـل، ولـم ينـزل علـى أي موجود آخر لاعقل فيه .

أما تصورات الفلسفة الغربية حول الذهـن والمـادة فلهـا مبرراتهـا ، وربمـا كان صحيحا ما أورده ، أن ذلك كان يمثل محاولة لترسيخ إنفصال الدنيا عن الدين الذي أصبح في هذه المرحلة أمرا شخصيا.

خاتمة

لقد أقام سيد قطب موقفه من العقل والفلسفة على أساس معرفي في المقام الأول، وبما أنه اعتبر المعرفة النبوية (الوحي) معرفة كلية ومطلقة وتتقدم كل معرفة، أصبحت لديه مصدر الحقيقة.

فإذا كان موضوع إدراك العقل هو العالم الخارجي، وإذا كان ما يقع للإنسان من معرفة بهذا العالم هو معرفة بالظواهر وبخصائص الأشياء كما تبدو من خلال معطيات الحس، فإن المرجعية المعرفية تبقى عند سيد قطب للمعرفة النبوية (الوحي) سواء أكان ذلك في مجال ما يقع خارج نطاق الحس أو ماله علاقة باي معرفة كلية، بما في ذلك حياة الانسان الاجتماعية.

لقد جعل سيد قطب العقل فردياً وهذا يدعو للتساءل عن الآلية التي يمكن التعامل من خلالها مع النص – الوحي في تطبيقه في ما يجد من قضايا. وبخاصة في ما يتعلق بما يحتاج إلى التأويل والشرح والتفسير والاجتهاد؟ (١٧، ٢٥)

ويبدو التناقض جلياً في الخطاب القطبي – حسب تعبير د. محمد حافظ دياب – عندما يتحدث عن العقل باعتباره غير قادر على اكتناه حقيقة ذاته، لأنه لا يعرف كيف يقع له إدراك الاشياء، ثم نراه في محطات أخرى يتحدث عن العقل، وعملياته الادراكية، وحدود الحواس، وحدود العقل، والزمان، والمكان. أليست هذه كلها من قبيل الحديث عن كيفية إدراك العقل للاشياء؟ لذا لا مفر من القول بأنه خطاب يقوم على رؤية معرفية مرتكنة صياغياً لحدود أهمها الجانب الصوري (حيث يبدأ بمسلمات لا تقبل الجدل أو النقاش، ثم يرتب عليها بناءه المتسلسل، وهو منطق صوري حتى مع قبول مسلماته، تعتمد قواعد الاثبات فيه على الدليل الديني، لا على الملاحظة أو التجربة).(٢٦، ٧٩، ٨٠)

وعلى الرغم من دعوة سيد قطب بالالتزام الحرفي (بالنموذج التاريخي للفترة المحمدية) إلا أنه يرى أن تكوين البناء الاجتماعي للمجتمع الاسلامي على شاكلة المجتمع المحمدي يحتاج لتعديل إذ أنه دعا إلى (عرض برامج اجتماعية للحياة قائمة على أصول الفكرة الاسلامية). إضافة لتكوينه عقدياً وسلوكياً. (٢٦، ١٠٧)

وإذا كان سيد قطب يـرى فـي الحـواس طريقاً غير مـأمون للوصـول إلـى الحقيقة، لأن الانسان قد يرى بها (اللحظة الصغيرة دهراً طويـلاً لملابسـة طارئـة) أو الزمـن الطويـل قصـيراً، (١/م/١/جـ٣، ٤٣٩،٤٣٨) فـإن ذلـك لا يعـد دليـلاً علـى عجـز الحواس عن تقديم حقائق يقينية، على اعتبـار أن الحـواس تصحـح بعضـها بعضـاً. ففي المثل المعروف عند ديكارت من أنني إذا ما نظرت للعصا داخل المـاء فـإنني أراها مكسورة وهي في الحقيقة علي غير تلك الحـال فإنـه لـو تـم اختبـار الموقـف بغير حاسة البصر، من خلال حاسة اللمس لتبين أن العصا لم تكن مكسورة.

وعندما يشير سيد قطب إلى موقف الاسلام من المعرفة الحسية، وتأكيده أن الاسلام يطلق الاجتهاد في الأمور الخاضعة للحـواس لقول الرسـول الكريـم (أنتـم أعلم بشـؤون دنيـاكم)، فهنـاك مـن يـرى أن كثيراً مـن النـاس كـانوا يعتقدون بـأن الرسول الكريم يباشر كل شـيء بايحـاء مـن اللـه إلا أن قولـه السـابق (ص) جـاء عندما كان الرأي المخـالف هـو الصحيـح (٢٧، ٦، ٧)، والامـة الاسـلامية قـامت علـى مدار التـاريخ بالتشريع لنفسـها بوسـاطة الفقهـاء والقضـاة والحكـام انطلاقـاً مـن العموميات الواردة في القرآن. وعليه فليس الفقـه الاسـلامي هـو الشـريعة بـل هـو (تشريع الناس للناس) حسب تعبير المستشار محمد العشماوي. (٢٧، ٥٥)

إضافة إلى ما تقدم، فإن ما يدعم حق العقل في التشريع اعتراف سيد قطـب بأن باستطاعة العقل تدبير أمر الحياة اليومية. وعلى الرغم مـن أنـه قصـر نشـاطه على الماديات – إلا أن الحياة اليومية لا تقف عند حدود الماديات فهناك على سبيل المثـال فـي أي حيـاة (قيـم رفيعـة هـي النظـام والنظافـة والأمانـة والدقـة والتجديـد والتعاون والدراسة والبحث وروح خدمـة الغير). وهـذه لا تقتصـر علـى الاسلام والمسلمين، بل ذات طابع انساني. (٢٧، ٨٧)

ومن هذا الباب فـإن الاجتهـاد بمعنـى (إبـداع الـرأي وابتدار الفكـر وابتـداء القول) (٢٧، ٢٨٥) أمر لا بد منه للعقل لتدبير أمور الحياة اليومية.

واستتباعاً للحديث عن الفرق بين الشريعة والفقه عنـد سيد قطـب نقـول إذا كان سيد قطب يرى أن الشريعة هي (المبادئ العامة والفلسفة الكليـة للديـن، وهـي

ثابتة) والفقه من صنع البشر لأنه تلبية لحاجاتهم اليومية. ولكن (الأحكام جزء من الشريعة، وبالتالي تحمل صفة الكل وهي الثابت) (٢٦، ١٠٨،١٠٩)

لذا يبدو اللبس أمراً محتوماً، عندما نعتبر الحكم جزءاً من الشريعة الثابتة، مع علمنا أن بعض الأحكام كان تلبية لحاجات وقتية وزمن مضى، وليس من مبرر لتطبيقها الآن (لانتفاء العلة)(٢٦، ١٠٩)

وسيد قطب في رؤيته للعقل على أنه قاصر عن امداد الانسان بمعرفة مستقبلية يقينية لأنه لا يملك الوسيلة لذلك، لأن مثل هذه المعرفة في علم الغيب، ولذلك وجب عليه عدم انكارها لأن انكاره لها يجعله بحاجة لمعرفة حتى يثبت صحة حكمه. فسيد قطب في كل ذلك – وعلى الرغم من ادعائه بأن ما يحصله العقل من معارف يقوم على الجدل والجدل يعتمد المهارة أكثر من اعتماده على الحقيقة الواقعية – نراه يستخدم الاسلوب نفسه في محاولة منه لاقناعنا بما يراه لمستقبل الأمة أنه الأصح. اللهم إلا إذا كان يفهم العلاقة بين العقل والوحي – النص على أساس أن فهم النقل يتم بوساطة العقل، وأن على العقل الالتزام بحدود النص، وأن سيد قطب أخيراً يقدمْ العقل على النص تقديم ترتيب والنص على العقل تقديم تقديس.

وانطلاقاً من أن سيد قطب يسمح للعقل بمعارضة مفهوم عقلي بشري (بمفهوم عقلي بشري آخر له ....).(١/م٢/جـ٦، ٥٩٦) وأنه يفسر ذلك بعدم وجود سلطة تملي على العقل المقصود بالنص الصحيح عندما يقبل تعدد الرأي فيه. انطلاقاً من كل ذلك هل يسمح سيد قطب للمفاهيم البشرية تجاه المسائل الرئيسة التي طرحها في فهمه للنص أن تُعارض من قبل مفاهيم بشرية أخرى في الموضوعات نفسها؟

ويناقش د. عادل ضاهر جانباً اساسياً من السؤال المطروح سالفاً حيث يرى أن قيام النظام السياسي على مبدأ الحاكمية لله يكون على أساس أن الذي يدعو لمثل هذا النظام يريد اقامته بناء على ما يأمر به الله أو القانون الإلهي، وعندها عليه – أي الحاكم – أن يطبق ما يعتقد أن الله يأمر به أو أنه القانون الالهي.

ولكن قد تختلف الافهام فيما يـأمر بـه اللـه. وعندهـا – حسـب د. عـادل ضـاهر – تصبح معرفة ما يأمر به الله أمراً غير ممكن (إلا إذا كنـا نعـرف بصـورة مستقلة أن ما نفترض أن الله يأمرنا بفعله هو ما ينبغي فعله من المنظور الاخلاقي). ولـذا يرى د. عادل ضاهر أنه حال وقوع الخلاف في فهم النص فيجب تعليقه، وهو مـا لم يدع إليه سيد قطب، الذي رأى النص مطلقاً وعلى الواقع أن يطابقه (٢٨، ٣٨٨).

وعلى الرغم مما قدمنا من رفض سيد قطب للفلسفة جملة وتفصيلاً، إلا أننـا نلمح إعجاب سيد قطب الخفي بالفلسفة والفلاسفة. فهو عندما تحدث عن تصـورات ارسطو تجاه الله والوجـود، تعجـب مـن صدورهـا عـن ذهـن فيلسـوف كبير مثل أرسطو. وذلك ظاهر أيضا في حديثه عن امكانية إفادة الفلسفة مـن الوحـي. وفـي حديثه عن الفلسفة المادية يرى أن في الشيوعية مجالاً ومساحة للحريـة الاعتقاديـة تتجاوز ما في البراجماتيـة الرأسمالية. وعند حديثه عن أصـل العليـة وصورتـي الزمان والمكان، يعني أنه لم ينجح في تجاوز دعوته في تجنب أي ظـلال فلسـفية، عند الأخذ عن الغرب أو الاطلاع على ثقافته. كما يعني أن الذي في الفلسـفة ليـس بمجمله سلبياً. كما أن ما طرحه من نقد تجاه الفلسفات كان منصباً فـي جـزء كبير منـه علـى الفلسـفة الماديـة (الشـيوعية) واسـباب ذلـك لا تخفـى علـى ذي بصـيرة، فالساحة العالمية عموماً والمصرية خصوصاً كانت تعاني من المد الشيوعي المادي فهي كما يراها سيد قطب تفسح مجالاً للاعتقاد وهنـا تظهر جلياً مـبررات دعوتـه لمشروعه الالهي.

المصادر والمراجع:

١- سيد قطب ، في ظلال القرآن ،الطبعة السابعة، (المجلدان الخامس والسابع، الطبعة الخامسة، ١٩٦٧)، دار احياء التراث العربي – بيروت ، لبنان ، ١٩٧١.

٢- سيد قطب ، مقومات التصور الاسلامي ، الطبعة الأولى ، دار الشروق – القاهرة ، بيروت، ١٩٨٦.

٣- سالم البهنساوي ، اضواء على معالم في الطريق ، الطبعة الأولى ، دار البحوث العلمية ، الكويت ، ١٩٨٥.

٤- زكي نجيب محمود ، نظرية المعرفة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة.

٥- راجح عبدالحميد سعيد الكردي ، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ، رسالة دكتوراة ، ١٩٧٩.

٦- سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ، الطبعة السابعة - دار الشروق ، بيروت - القاهرة ، ١٩٨٢.

٧- سيد قطب ، هذا الدين ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ١٩٧٨.

٨- احمد موصللي ، الاصولية الاسلامية دراسة في الخطاب الايديولوجي والسياسي عند سيد قطب (بحث مقارن لمبادئ الاصوليين الاصلاحيين)، الطبعة الأولى، دار الناشر ، ١٩٩٣.

٩- سيد قطب ، افراح الروح ، الطبعة الأولى ، الدار العلمية ، بيروت، ١٩٧١.

١٠- سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، الطبعة العاشرة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٦.

١١- سيد قطب، مشاهد القيامة في القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة،١٩٤٧.

١٢- سيد قطب، "تفسير سورة الشورى"، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٩٨٢.

١٣- سيد قطب ، معالم في الطريق ، الطبعة العاشرة ، دار الشروق ، بيروت - القاهرة، ١٩٨٣.

١٤- سيد قطب ، السلام العالمي والاسلام ، الطبعة السابعة ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ١٩٨٣.

١٥- سيد قطب ، في التاريخ فكره ومنهاج ، الطبعة الثالثة ، دار الشروق، بيروت ، القاهرة ، ١٩٧٩.

١٦- سيد قطب ، دراسات اسلامية ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ١٩٧٨.

١٧- أحمد ماضي، الحاكمية لله في فكر سيد قطب، المجلة الفلسفية العربية ، المجلد الثالث ، العدد الثالث، عمان ، الأردن، ١٩٩٤.

١٨- سيد قطب، نحو مجتمع اسلامي، الطبعة الخامسة، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٢.

١٩- مهدي فضل الله، مع سيد قطب في فكره السياسي والديني ، رسالة دكتوراه - جامعة السوربون ، باريس ، ١٩٧٨.

٢٠- سيد قطب ، المستقبل لهذا الدين ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة، ١٩٧٤.

٢١- جميل صليبا، الغزالي: أعجب شخصية في تاريخ الفكر الاسلامي، مجلة العربي ، العدد الثالث عشر ، ١٩٥٩ ، الكويت.

٢٢- زكريا ابراهيم، كانت أو الفلسفة النقدية، الطبعة الثانية، مكتبة مصر ، القاهرة، ١٩٧٢.

٢٣- سيد قطب ، الاسلام ومشكلات الحضارة ، الطبعة السابعة ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ١٩٨٢.

٢٤- سيد قطب ، العدالة الاجتماعية في الاسلام ، الطبعة العاشرة ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٨٧.

٢٥- سيد قطب ، معركة الإسلام والرأسمالية ، الطبعة السادسة ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ١٩٧٩.

٢٦- محمد حافظ دياب، سيد قطب الخطاب والأيديولوجيا، الطبعة الثانية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٢.

٢٧- المستشار محمد سعيد العشماوي، الاسلام السياسي، موفم للنشر، القاهرة، ١٩٩٠.

٢٨- عادل ضاهر، الأسس الفلسفية للعلمانية، الطبعة الأولى، دار الساقي، بيروت - لبنان، ١٩٩٣.

- القرآن الكريم.

- ابن منظور(٦٣٠ - ٧١١هـ)، لسان العرب، المجلد الأول، الطبعة الثالثة، مكتب تحقيق التراث، دار احياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٣م-١٩٩٣.

Abstract

SAYED KOTB ON REASON AND PHILOSOPHY

Mohammad Al-Assaf

Superviserd By

Salman Al-Budoor

Sayed Kotb was optemistic towards knowledge. He referred to the religious vision of Adam as the first creature on whom God Conferred knowledge. He mentioned, senses mind and revelation as the sources of human knowledge. Senses provide man with knowledge of the external world through repeated experience and observation. Sayed Kotb searched for the validity of this knowledge in the fact that Islam admits the "Ijtihad" in what could be considered an object of senses and experience. But Since this sort of knowledge needs continuity, it relied upon the mind which derives its relevent concepts and ideas about the world by collecting representations and deducing canclusions.

Sayed Kotb discussed the "principles of mind" particularly the principle of causality, and denied any necessary relationship between cause and effect. He attributed the sequence of events to God's will which stands, according to his view, behind what the so called the series of causes and effects.

Sayed Kotb defined three levels of truth: Materialistic truths, which can be a chieved by research based on what he called laboratory experiments. Mathematical truths, which is based on assumptions. And the Divine truths which prophets recieve by

intuition and revelation from its metaphysical source. These Divine truths, since they are the bases of religion, are unchangable.

The critirion of truth is expressed briefly by Sayed Kotb as: "The shortest way to conscious is "what is self-evident" and the shortest way to what exists is sense".

Sayed Kotb, who believed that revelation is the only reliable source of true knowledge, criticised mind as a valid source of knowledge, particularly mind's judgments about the supersensible. He considered these judgments as mind made generalization of the sense-data. Mind is restricted to sense-data, which is limited by the two forms, time and place. Sayed Kotb concludes, since God created these forms, He does not place Himself in them, therefor mind cannot percieve God or his Attributes. Mind Cannot produce new knowledge about existence, but discovers what exists. The knowledge of the supersensible is attainable by revelation only, and mind should accept it as such. Mind can do well when it deals with the daily life affairs and remaines within the frameworkd of sense-data. Beyond that, when mind comes to deal with the order and the norms of the human life as a whole, it has a very limitted room and unvalid tools.

Sayed Kotb did not undermine the role of mind in knowledge, but he denied the ability of mind to comprehend the characteristics of the Islamic concept of the whole universe, including human life as it appeared in the "revealed text. For this very reason, Sayed Kotb assigned priority to revelation and not to the mind.

Sayed Kotb's criticism of philosophy in general was based on his view of the mind and its role in achieving knowledge. He

considered man's try to apply the principles of mind to the universe an attempt to understand the events occur in the universe. And since philosophy itself (as Kotb viewed it) is a comprehensive man made knowledge, by which man tries to define the causes of things and events in a way to connect them in a whole order, which Sayed Kotb believed that it is beyond the ability of mind, then he conclude than such attempt will remain poor and impatent.

Sayed Kotb believed that there is an absolute truth, but it does not appear except whithin its religious and metaphysical form, and man cannot be the source of it .

Sayed Kotb criticized the different schools of philosophy, he considered the Greek philosophy as paganistic, because it explains the relationship between God and the universe in a way unacceptable from an islamic point of view. He also considered Islamic Philosophy as an extention of the Greek philosophy and he suggested that a pure Islamic concept of existence should be purified from what is so called Islamic philosophy and "Ilm al-Kalam".

Sayed Kotb criticized modern and contemporary Western philosophy after he classified and bridged all its trends in three categories: Idealism, in which he put all trends which consider the universe as the mind and its ideas, and that the world is not more than what man knows. And the order of the world springs out from the shape of the Human knowledge. Realism, in which he classified the trends that admit that the external world has independent existance from the mind, and those trends of meterialism,which consider what exists as the matter and its manifestations, Therefor human knowledge remains within the bounderies of matter.

Vitalism, which considers life as the creative force in the universe, it employs matter and mind in the process of self-developing.

All these views of sayed Kotb twoards Western philosophy stand short of a comprehesive, deep and thorough understanding of that Philosophy and its trends. It goes without saying that his criticism was of Western philosophy based on his view towards the role of the mind in knowledge and on his own prejudices some of which are cultral such as that the Western philosophy is a try to emphasize the separation between religion and state, and some others are religious such as his view of philosophy as an extension of paganism, or abstractions derived from the mind itself, and therefore is different from the Islamic point of view. Therefor one can conclude that Sayed Kotb's criticism of the mind and philosophy was arbitrary, and his awarness of Western philosophy does not enable him to represent a fair and accurate criticism of it.